محمد رضا الحكيم

أقطاب الشيعة

٣

هاشم المرقال

والله يا أمير المؤمنين ، ما أحب أن لي ما في الأرض مما أظلت ، ومالحت السماء مما أظلت ، وأني واليت عدواً لك أو عاديت ولياً لك .

هاشم المرقال

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

مطبعة الزهراء في النجف

297.092:H153H:c.1

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

PHILIP HITTI COLLECTION

هدية الرابطة للعارة
الاستاذ الجليل السيد تيكلي حنا
ذكرى زيارته للجمعية
١٥/١٢/١٩٥٢

مكتبة
جمعية الرابطة الثقافية الأدبية
في النجف الاشرف

محمد رضا الحكيم

297.092
H155hA
C.1

أقطاب الشيعة

٣

هاشم المرقال

والله يا أمير المؤمنين ، ما أحب أن لي ما في الأرض مما أقلت ، وما تحت السماء مما أظلت ، واني واليت عدواً لك أو عاديت ولياً لك .
هاشم المرقال

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

مكتبة
جمعية الرابطة الثقافية الأدبية
في النجف الاشرف

مكتبة
جمعية الرابطة الثقافية الأدبية
في النجف الأشرف

L153-1/1180

محتويات الكتاب

صفحة		صفحة	
١	نعرة الأنساب	٨٧	مع عثمان
١٣	فى الجاهلية	٩٥	فى بيعة الامام
١٩	فى الاسلام	١٠١	إلى حرب الجمل
٢٥	فى الغدير	١٠٧	مع الامام
٣٥	إلى الجهاد	١١٥	إلى صفين
٤١	فى الشام	١١٩	هاشم وعمرو
٤٩	فى اليرموك	١٢٣	بطولة وتضحية
٥٧	على جحفل المشاة	١٢٩	وعظ وإرشاد
٦٣	إلى القادسية	١٣٧	الشهادة
٦٩	إلى المدائن	١٤٧	عبدالله ومعاوية
٧٥	إلى جلولاء	١٥٥	رثاء وتأبين
٨١	إلى الكوفة	١٥٩	خلاصة البحث

الاهـداء

إلى خليفة رسول الله حقاً وخير الوصيين

إلى سيد المسلمين وامام الموحّدين

إلى مؤسس جامعة الشيعة وعميدها

إلى أبي الحسنين أمير المؤمنين

أرفع بكلتا يدي سيرة تلميذه وصاحبه الوفي الأمين

هاشم بن عتبة المرقال وأرجو أن أنال رضاه .

محمد رضا الحكيم

نصرة الأنساب

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ -

الباحثون والمؤرخون القدماء أن يحتفلوا بالنسب غاية الاحتفال فاحتفظوا في تراجمهم للعظماء وذوي المكانة من الناس بسلسلة نسبهم الطويلة واولوها من عنايتهم حتى تركوا لها مكان الصدارة في الترجمة

ومرد هذه الظاهرة حسب ما أرى الى أن العرب قبل الاسلام كانت امة بدوية العادات والأخلاق تعيش شعوباً وقبائل واحزابا متنافرة لا تجتمع الا على القتال ولا تصغي الا لمنطق القوة ، فكان الفرد مضطراً بطبيعة الحال في هذه الفوضوية الاجتماعية الجامحة أن يتمسك بذيل من تربطه معهم روابط النسب والقرابة يلوذ به عن الطوارىء والاعتداءات . ومن هنا كان الأجانب والضعفاء يتمسكون في ذلك الحين بالمعاهدة والحلف مع احدى تلك القبائل العربية .

وتبقى هذه الظاهرة حصن العربي المنيع حتى تتطور وتأخذ شكلها الخاص قبل الاسلام بقليل حينما اجتاحت العرب زوبعة جاهلية عنيفة

تعود

تداعت معها قواعد الخلق العربي الكريم وتفصمت عرى الفضيلة فتصبح مقياساً للفخر تدل على الخلوص من شوائب الهجنة والبغاء لكثرة ماشاع بين العرب من الادعياء والدخلاء . ومن هنا نجد الأدب الجاهلي زاخراً بهذا اللون من الفخر .

ويصادف هذا المقياس اقبالاً في نفوس المتأخرين من العرب وتشجيعاً منقطع النظير لتدهور الأخـلاق الاجتماعية بينهم وشعورهم بالضعة والهوان وضعف الكفائات والقابليات في نفوسهم فيتخذ مكانه الخاص في التاريخ ويحضى بكل هذه العناية من الباحثين والكتاب .

ويقبل الاسلام بتعاليمه القيمة فيدرك وبال هذا المقياس الاتكالي على الأمة الاسلامية ونتائجه الوخيمة المفرقة ، ومنافاته لرسالتـه الاتحادية الجامعة فيحذر الناس وينهاهم عنه ويحثهم على الكمال الذاتي والفضيلة النفسية التي عبر عنها بالتقوى ، ويجعلها مقياس المقاييس يتساوى بالقياس اليه الجميع لافرق بين عربي واعجمي وبين دعي وصريح كل ذلك لتقوية القابليات في نفوسهم وارشادهم الى طريق السعادة والسلام .

يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « ان الله قد اذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء ، اما مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام ماهم الا فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن على الله اهون من الجعل الذي يدفع بأنفه النتن (١) ويقول أيضاً « لاتفتخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية ، فوالذي نفسي بيده ،

(١) ذكر ذلك الدميري في حياة الحيوان الكبرى في باب جعل ١ / ١٩٦

لما يدحرج الجعل بأنفه — ويعني به العذرة والروث — خير من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية » (١) .

وليس ادل على مدى ثورة الاسلام على هـذا المقياس من قوله صلى الله عليه وآله وسلم « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا » (٢) .

ويروى ان الخليفة عمر بن الخطاب سمع فى أيام خلافتـه أصواتاً ولغطاً بباب مجلسه فقال لمن عنده اخرج فانظر من كان من المهاجرين الأولين فادخله فخرج الرسول فوجـد جماعة كثيرة جلوساً على الباب ينتظرون الاذن بالدخول ، فيهم بلال وصهيب وسلمان ، وفيهم من أشراف قريش وزعماء العرب كأبي سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو فى عصابة من وجوه الناس ، فأذن لبلال وصهيب وسلمان ، ولم يأذن للباقين ، فلما رأى ذلك أبو سفيان التفت من الحدة والغضب الى من معـه يقول ، يامعشر قريش ، أنتم صناديد العرب واشرافها وفرسانها بالباب ، ويدخل حبشي ورومي وفارسي ، فاجابه سهيل يقول ، يا أبا سفيان انفسكم فلوموا ، ولا تذموا اميرالمؤمنين ، دعى القوم فأجابوا ، ودعيتم فأبيتم ، وهم يوم القيامة اعظم درجات وأكثر تفضيلا ، فقام أبو سفيان منصرفاً وهو يقول ، لاخير فى مكان يكون فيه بلال شريفاً — وهو قول يدلك على مدى

(١) ذكر ذلك الدميري في حياة الحيوان الكبري في باب جعل ١ — ١٩٦

(٢) يقول المفسرون لهذه الرواية انه صلى الله عليـه وآله وسلم يقول . من تفاخر بآبائه ونسبه ودعا الى العصبية القبلية ونعر بنعرة الجاهليـة المفرقة فقولوا له صريحاً اعضض بأير أبيك ، ولا تكنوا له في القول .

تغلغل العصبية الجاهلية فى نفس أبي سفيان حينذاك .

على ان في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مايغنينا عن كل رواية وحديث ، فقد اتفق الرواة والمؤرخون على انه ولى على المسلمين جملة من الادعياء ومغموري النسب كعمرو بن النابغة المعروف بابن العاص وامثاله واستخلص لنفسه نفراً من الأعاجم كسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي وقدمهم على كثير من الصحابة ذوي النسب الصريح الوضاح ، ولا نزال نرى اثر هذه السيرة شائعاً قديماً وحديثاً بين عقلاء المسلمين الى الآن . وهل يشك أحد من الناس في تقدير أكثر المسلمين لأمثال الشيخ عبد القادر الكيلاني والامام أبي حنيفة وبعض أصحاب الصحاح الست كالبخاري وغيره مع انهم كما يعلم الجميع أعاجم ليسوا من العرب فى شيء . وانك لو أحصيت علماء الاسلام بالفعل لوجدت أكثر علماء السنة من غير العرب وجل علماء الشيعة الروحيين من الفرس تقريباً ولا ريب انهم فى نظر المسلمين أسمى وأجل بكثير من أي عربي آخر تأخرعنهم في العلم والفضيلة مهما اتصلت حلقات نسبه وامتدت ، مما يبشرنا كل هذا باندثار العصبية الجاهلية واضمحلال آثارها .

واذا كان فى المؤرخين والباحثين اليوم من يعتني بسلسلة نسب من يترجمه من الرجال فماذاك الا ليعلم بعض الخصائص الفردية التي يمتاز بها بعض آباء المترجم ليعرف مقدار ما أثروا عليه بسبب الوراثة ، ومقدار ما تأثر به صاحبهم من تلكم المؤثرات . اما نحن فلسنا فى حاجة الى كل ذلك بعد ما علمنا وسيعلم القارىء الكريم اذا تفضل بقراءة هذا الكتاب . ان صاحبنا هاشماً

كان ارفع مكانة في نظر التاريخ من جل آبائه وأفراد قبيلته ، وانه كان عصامي الشخصية كون نفسه بنفسه . من دون أن يكون لآبائه أثر في تكوين هذه الشخصية وبنائها .

وبما انا قد أخـــذنا على أنفسنا ان نكون دائماً عند رضا الجميع وكنا نعلم ان في الناس لا تزال بقية تعتني بالنسب وتحتفل به رأينا ان نذكر هنا نسب صاحبنا المرقال تفصيلاً ، مالم يخرجنا هذا التفصيل الى الاسفاف والتطويل ، عملاً بالخطة التي التزمناها وآلينا أن نسير جهدنا على ضوئها ، ونزولاً عند رغبة هذه البقية من الناس .

- ٢ -

وهاشم كما يذكر أكثر المؤرخين من أصرح القبائل العربية واجلها مقاماً ومنزلة . وهل في القبائل العربية أصرح وأجل من قريش .

فهاشم بن عتبة بن أبي وقاص . مالك بن أهيب بن عبدمناف بن زهرة الذي فيه وفي أخيه قصي يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم — صريحا قريش ابنا كلاب — وقد اشتهر باسمه فرع من قريش ينسب صاحبنا اليه .

وزهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لوي بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد .

ويأبى بعض المؤخين والنسابين لصاحبنا هذه النسبة مدعياً ان أباه عتبة وعمه سعد وبقية أقاربه دخلاء في قريش وانهم لرجل من بني عذرة

ثم يذكر لذلك قصة طويلة عريضة أعرضنا عن ذكرها لما فيها من الاسفاف والتطويل .

ولم يعدم هؤلاء الطاعنون من الشواهد لمن سبر التاريخ وتغلغل في حوادثه وبين أحاديثه كقول حسان بن ثابت مثلا فى قصيدته التي يهجو فيها عتبة لما كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم احد وشج وجهه وكلم شفتيه . يقول فيها حسان :

فمن عاذري من عبد عذرة بعدما هوى فى دجوجي شديد المضايق
واورث عارا فى الحياة لأهله وفي النار يوم البعث ام البوائق

وكقول عبد الله بن مسعود لسعد بن ابي وقاص ، وقد اختصما فى أمر فى خلافة عثمان بن عفان حتى جرهما الخصام الى التهاتر والسباب فقال له سعد ، اسكت ياعبد هذيل ، فأكال له عبد الله صاعاً بصاع وردعليه يقول . اسكت ياعبد عذرة .

وكقول معاوية بن أبي سفيان لسعد أيضا وقد تنازعا بما اوجب ان يقول لمعاوية ، انا احق منك بالخلافة ، فاجابه معاوية ساخرا وعلى فمه ابتسامة صفراء وهو يقول يابى عليك ذلك بنو عذرة .

وهذه الشواهد الثلاث إن صحت لاتكفي لترجيح جانب الطاعنين في جانب الكثرة الغالبة من المؤرخين والنسابين الذين يقولون انهم من قريش ولا يرتابون في هذه النسبة . وليس لدينا مايعين أحد هذين القولين ، وكل ماهنالك روايتان قد تكونان في جانب المصححين لولم يكن أثر الوضع ظاهراً عليهما .

كان ارفع مكانة في نظر التاريخ من جل آبائه وأفراد قبيلته ، وانه كان عصامي الشخصية كون نفسه بنفسه . من دون أن يكون لآبائه أثر في تكوين هذه الشخصية وبنائها .

وبما انا قد أخـــذنا على أنفسنا ان نكون دائماً عند رضا الجميع وكنا نعلم ان في الناس لاتزال بقية تعتني بالنسب وتحتفل به رأينا ان نذكر هنا نسب صاحبنا المرقال تفصيلاً ، مالم يخرجنا هذا التفصيل الى الاسفاف والتطويل ، عملاً بالخطة التي التزمناها وآلينا أن نسير جهدنا على ضوئها ، ونزولاً عند رغبة هذه البقية من الناس .

- ٢ -

وهاشم كما يذكر أكثر المؤرخين من أصرح القبائل العربية واجلها مقاماً ومنزلة . وهل في القبائل العربية أصرح وأجل من قريش .

فهاشم بن عتبة بن أبي وقاص . مالك بن أهيب بن عبدمناف بن زهرة الذي فيه وفي أخيه قصي يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم — صريحا قريش ابنا كلاب — وقد اشتهر باسمه فرع من قريش ينسب صاحبنا اليه .

وزهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لوي بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد .

ويأبى بعض المؤخين والنسابين لصاحبنا هذه النسبة مدعياً ان أباه عتبة وعمه سعد وبقية أقاربه دخلاء في قريش وانهم لرجل من بني عذرة

ثم يذكر لذلك قصة طويلة عريضة أعرضنا عن ذكرها لما فيها من الاسفاف والتطويل .

ولم يعدم هؤلاء الطاعنون من الشواهد لمن سبر التاريخ وتغلغل في حوادثه وبين أحاديثه كقول حسان بن ثابت مثلا فى قصيدته التي يهجو فيها عتبة لما كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم احد وشج وجهه وكلم شفتيه . يقول فيها حسان :

فمن عاذري من عبد عذرة بعدما هوى فى دجوجي شديد المضايق
واورث عارا فى الحياة لأهله وفي النار يوم البعث ام البوائق

وكقول عبد الله بن مسعود لسعد بن ابي وقاص ، وقد اختصما فى أمر فى خلافة عثمان بن عفان حتى جرهما الخصام الى التهاتر والسباب فقال له سعد ، اسكت ياعبد هذيل ، فأكال له عبد الله صاعاً بصاع وردعليه يقول . اسكت ياعبد عذرة .

وكقول معاوية بن أبي سفيان لسعد أيضا وقد تنازعا بما اوجب ان يقول لمعاوية ، انا احق منك بالخلافة ، فاجابه معاوية ساخرا وعلى فمه ابتسامة صفراء وهو يقول يابى عليك ذلك بنو عذرة .

وهذه الشواهد الثلاث إن صحت لاتكفي لترجيح جانب الطاعنين في جانب الكثرة الغالبة من المؤرخين والنسابين الذين يقولون انهم من قريش ولا يرتابون في هذه النسبة . وليس لدينا مايعين أحد هذين القولين ، وكل ماهنالك روايتان قد تكونان في جانب المصححين لولم يكن أثر الوضع ظاهراً عليهما .

١ — ماأخرجه الضحاك عن سعد بن أبي وقاص انه جاء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً « وقد برم بكثرة الطاعنين في نسبه » فقال له يارسول الله من أنا فقال النبي أنت سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، من قال غير ذلك فعليه لعنة الله .

٢ — ما رواه جابر بن عبد الله . قال أقبل سعد يوماً فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم التفت الى من كان حاضراً من المسلمين وقال مشيراً الى سعد هذا خالي (١) فليرني امرء خاله .

ولا أظنني في حاجة الى اثبات الوضع في هاتين الروايتين ويكفي أن يعلم القاريء ان الاولى منهما لم تسند الا الى سعد نفسه ولم يسمعها احد من المسلمين مطلقاً مباشرة من النبي مع انها لو صحت لوجب ان يسمعها غيره وتكون امام جماعة من المسلمين على الأقل ليذيعوا ذلك عن النبي إن لم يجب ان تكون امام هؤلاء الطاعنين انفسهم ليكفوا عن الطعن في نسبه ويعقلوا السنتهم عن الزرايه والتنديد به ، والا فماذا ينفع سعداً هذا السؤال الانفرادي وماذا يجديه الجواب أكان هو نفسه من جملة الشاكين في نسبه فالتمس اليقين عند النبي ليطرد عنه هذا الوسواس ، ام انه من الصدق والامانة في الحديث بحيث كان واثقا من تصديق المسلمين عامة لروايته سواء في ذلك الطاعنون وغيرهم بمجرد ان يخبرهم بقول النبي وينقل اليهم ذلك الجواب ، منطق الحوادث يقول لا هذا ولا ذاك ، لأن سعدا

(١) يقولون . انما قال النبي . هذا خالي . لأن سعداً من بني زهرة وان ام النبي . آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة .

لو كان من جملة الشاكين في نسبه لما برم بالشاكين وضجر منهم ولا التمس اليقين عند غير النبي عند النسابين والمطلعين على مثل هذه القضايا حينذاك ولو كان من المنزلة عند المسلمين بحيث كان يظن لما أحتاج الى سئوال النبي وغيره ولكان في جوابه غنى عن كل سئوال وجواب ولصدقوه من أول الأمر وبمجرد ان يخبرهم بصحة نسبه وصراحته . اذن فما فائدة ذلك السئوال والجواب . وعلى أي شيء نحمل هذه الرواية لاشيء « في نظري » الا على الوضع والسلام .

ولست أدعي ان سعداً هو الذي وضع هذا الحديث لنفسه ، فقد يجوز ان يكون انصاره هم الذين وضعوه وعنعنوا سنده حتى اوصلوه اليه ، باعتباره أحد العشرة المبشرة بالجنة ، والجنة محرمة في نظرهم على الادعياء .

أما الرواية الثانية فحسبنا في الاعراض عنها انها مهجورة ، كل اعدائه يتندرون بها وأكثر انصاره يتجهمون في وجهها ويعرضون عنها ، وهذا الترمذي يذكرها بلهجة الاستغراب ويذيلها بما يجده في نفسه منها ويقول وهذا « يعني الحديث » غريب وهو استغراب له دلالته الواضحة عند الباحثين . ولا نريد من الوضع أكثر من هذا المقدار .

ومهما يكن من شيء ، وسواء كان صاحبنا هاشم من بني زهرة القرشيين او من بني عذرة القضاعيين (١) مادام له شخصية فذة لامعة

(١) بنو عذرة بطن من قضاعة وهم معروفون بشدة العشق . قيل لاحدهم مابال الرجل منكم يموت في هوى امرأة فقال لان فينا جمالا وعفة .

توفرت فيها كل عناصر الشخصية فخلقت له مكانا سامياً جـديراً به في التاريخ .

على ان بني زهرة فرع خامل وعنصر كسول وليس فيهامن عناصر الشخصية ومؤثراتها مايمكن أن يرثه هاشم عنها وحسبك ان تعلم انهاخؤولها تفتخر بسعد بن أبي وقاص وتتشرف بنسبته اليهـا وفي ذلك يقول السيد الحميري في قصيدته المشهورة (١)

اورهط سعدوسعد كان قدعلموا عن مستقيم صراط الله صدادا
قوم تداعوا زنيما ثم سادهم لولا خؤول بني زهر لما سادا

ويقول الخليفة عمر بن الخطاب لسعد وقد اقبل عليه في الحديث فيمن أقبل عليه من أصحاب الشورى قبل وفاته بقليل . أقبل عليه يقول . وما أنت ياسعد ، انما انت صاحب مقنب من هـذه المقانب تقاتل به ،

---

(١) القصيدة طويلة نذكر للقارىء الكريم منها هذه الأبيات .

سائل قريشاً بها ان كنت ذا عمه من كان اثبتها فى الدين اوتادا
من كان أقـدمها سلماً واكثرها علماً وأطهرها اهـلا واولادا
من وحـد الله اذ كانت مكذبة تدعوا مـع الله اوثاناً وانـدادا
من كان يقدم في الهيجاء ان نكلوا عنها وان بخلوا فى ازمة جادا
من كان اعـدلها حكما واقسطها حلماً واصدقها وعـداً وايعادا
ان يصدقوك فلم يعدوا أبا حسن ان انت لم تلق للأبرار حسادا
ان أنت لم تلق من تيم أخا صلف ومن عـدى لحق الله جحادا
أو من بني عامر او من بنى اسد رهط العبيد (ذوو جهل) واوغادا
او رهط سعد وسعد كان قد علموا عن مستقيم صراط الله صدادا
قوم تداعوا زنيما ثم سادهم لولا خؤول بنى زهر لمـا سادا

وصاحب قنص وقوس وأسهم لاتقوم بادارة قرية من هذه القرى ، وما زهرة والخلافة وامور الناس .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا بعد أن تعرضنا لقول الخليفة عمر في سعد أن دخول سعد في الشورى وترشيحه من قبل عمر للخلافة (مع الالتزام بصحة مايروى عن النبي بأن الائمة من قريش) لا يثبت سعدا من قريش ولم يمنع التشكيك مع هذا في نسبه ، لانه ثبت عندنا بالأدلة القطعية ان مراد النبي بالأئمة ، هم الأئمة المنصوص عليهم من قبله وبتعيين من خليفته الشرعي صاحب الحق الاول المقصود بحديث يوم الغدير ، ولم يتفق للنبي ولا للامام أن تعرضا لسعد ورشحاه للخلافة

على انا لو اسففنا وعممنا المراد من الأئمة ، وقبلنا بكل ترشيح ، فمن ذا يستطيع أن يثبت لنا أن الخليفة عمر كان ملتفتاً الى قول النبي هذا حينما رشح سعدا للخلافة ، فقد كان عمر رضي الله عنه (لشدة اهتمامه بأمور المسلمين) كثير النسيان وكثيراً جداً ، وقد نسي ما كان قد شهد به لابي بكر يوم السقيفة ورواه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه يقول (لاتجتمع النبوة والخلافة في بيت) فرشح الامام للخلافة وادخله في شوراه ونسي أيضاً قوله هو للناس قبل وفاته بقليل (رأيت أن اجعل الخلافة شورى بين ستة نفر مات رسول الله وهو راض عنهم) ثم اقبل على طلحة احد الستة بعد ساعة او أقل يقول (ولقد مات رسول الله ساخطا عليك بالكلمة التي قلتها يوم انزلت آية الحجاب) (١)

(١) راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ١ : ٦٢

وعلى كل حال ، ولو فرضنا ان سعداً وابن أخيه صاحبنا هاشما من بني زهرة القرشيين فقد قلنا ان بني زهرة فرع خامل ليس فيهم من مؤثرات الشخصية مايمكن ان يرثه عنها وحسب القارىء أن يعلم في ختام هذا الفصل ان بني زهرة لخمولها كانت اصل المثل المشهور الذي يقول (لا في العير ولا في النفير) أرسله عليهم أبو سفيان بن حرب وسار مثلا بين الناس يضرب للحقير الضعيف (١) الذي لاخير فيه .

---

(١) ذكر الميداني في مجمع الامثال عن المفضل ان اول من قال « لا في العير ولا في النفير » ابو سفيان بن حرب قاله في بني زهرة . وذلك . انه اقبل بعير قريش من الشام وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ندب المسلمين للخروج معه يعترضها . واقبل أبو سفيان حتى دنا من المدينة وقد خاف من المسلمين خوفا شديدا . فقال لصاحبه مجدي بن عمرو هل احسست احداً من اصحاب محمد فقال ما رأيت من احد أنكره الا راكبين اتيا الى هذا المكان وأشار الى مكان « عدي وبسبس » وكانا عيناً لرسول الله . فأخذ أبو سفيان ابعار بعيريها وفتها فوجد فيها نوى فصاح فزعا . علائف يثرب . هذه عيون محمد . ثم ضرب وجوه ابله فساحل بها وترك بدرا يساراً . وبعث الى قريش يستصرخها ويستنجد بها فاقبلت قريش عن بكرة أبيها فلما نجا أبو سفيان بالتجارة ارسل اليهم يخبرهم بنجاته ويأمرهم بالرجوع فابت قريش أن ترجع وأخذتهم العزة بالاثم ورجعت بنوزهرة من ثنية اجدى عدلوا الى الساحل منصرفين الى مكة فصادفهم أبو سفيان وقال لهم غاضباً « يابني زهرة لا في العير ولا في النفير » قال الاصمعي فصار هذا المثل يضرب للرجل يحط امره ويصغر قدره

فى الجاهلية

— ٣ —

وتزف عاتكة بنت عوف (١) الى عتبة فتعلو في فضاء مكة اهازيج بني زهرة سروراً بهذا الزفاف . وتجتمع رؤساء قريش وزعماء العرب على وليمة فخمة تقام في بيت أبي وقاص . ثم ينفض الحفل وكل يبارك لعتبة هذا الزواج ويتمنى له السعادة والهناء .

ويجتمع العروسان ويمضي عليهما زمان وزمان . فتنجب له عاتكة وليداً فيمن تلد امسى له في دنيا البطولة والجلالة دوى لايزال يرن من خلف القرون صداه .

وتعم البشرى آل أبي وقاص بهذا الوليد فيستقبله أبوه يحمله وجبينه طافح بالسرور وعلى فمه ابتسامة مفعمة بالارتياح . فأخذ يتأمله ويعجب ثم يعجب ويتأمل لما يتوسمه في وليده الجديد من آثار الفطنة والذكاء . ثم عمد اليه على عادة العرب ليسميه فأخذ يتأنق في التسمية ويستعرض اشهر الاسماء العربية الشائعة واسماها حينذاك فيختار له من بينها ماهو اكثر بركة على قبيلته وقومه ، واحلى في فم الرواة والشعراء ، وأليق بفطنته وذكائه ، فيسميه هاشماً ، تيمناً بالرجل الذائع الصيت ، باني

(١) ذكر بعض المؤرخين . ان امه عاتكة بنت عوف اخت عبد الرحمن بن عوف . وذكر الحاكم في المستدرك . ان امه زينب بنت خالد بن عبيد بن سويد بن جابر بن تيم بن عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناف بن عدي بن كنانة .

مجد قريش وفخرها ، هاشم بن عبد مناف بن قصي .

ثم يعمد اليه مرة أخرى ليكنيه فيكنيه أباعمر، لكثرة ما كان يكنى به الزعماء والأشراف ، ولما لم يجد مايفي بسمو وليده من الالقاب ترك ذلك للظروف تلقبه بعد ذلك بما تختار . فتلقبه بالمرقال ، لبطولته وشجاعته ، ولانه يعدو امام الصفوف فى ساحات القتال ويرقل ارقالا ، او لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له فى احدى غزواته « ارقل ليمون » يستحثه على الحرب والجهاد .

ويأنس الوليد بأبويه فينمو ، ثم ينمو ويدرج ، وتنمو وتدرج معه غريزة الفضول فيتطلع الى مايعملان ويقولان فيعمل ويقول بالتقليد والمحاكاة ، ويزيده هذا التقليد عادة دنو امن أبويه وكثرة العناية والعطف منهما فيزيد من العمل والقول ليحظى بأكثر ماوسعه من تلك العناية وذلك العطف . ثم ينمو ويشب ، ثم يشب ويشتد ، حتى اذا بلغ من العمر مايأهله لصحبة ابيه والخروج معه الى حيث كان يؤدي فرائضه الدينية ويقضى فيه أماسيه بالسمر مع المعارف والاصدقاء بدأت عقيدته الوثنية تتكون شيئاً فشيئاً بما يراه ويسمعه في البيت الحرام وندوات السمر من ضروب التعظيم لهياكل الاصنام والوان الاجلال لها والاحترام .

وكانت مكة في ذلك الحين بؤرة العقائد الفاسدة ، وعش الاديان الخبيثة الآفنة ، ووكر الوثنية الأثيمة الموبقة . وقد تزحلقت قريش روحيا (١) فى مقدمة من تزحلق من العرب فتفننت في اقامة شعائر

(١) يقول المؤرخون : كانت قريش وعامة بطون معد بن عدنان قبل هذا

الوثنية وتأنقت فى وضع الاصنام وفى محلها ، فرفعت « هبلا » على الكعبة ونصبت فى جانبي المسجد الحرام « اسافاً ونائلة » واختارت « لمجاور الريح » مكانا على الصفا و (لمطعم الطير) برجاً على المروة ؛ ثم أخذت تقدسها وتركع تعظيما على اقدامها ، وتطوف عليها بالاثم والتقبيل تطلب منها الخير وتستجدي البركات ، فلا غرابة إما أسف صاحبنا مع القوم ، وقد ولد في هذه البلدة بلدة الاصنام والأوثان ، ونشأ فى ذلك الوسط الموبوء فتزحلق مع قريش في تلك الهوة الروحية السحيقة وتأثرت نفسه الفتية بما تأثرت به نفوس قومه وعشيرته ، وليس بعد ذلك عليه من غضاضة ، مادام من قريش له مالهم وعليه ماعليهم .

وما يدرينا . فلعل صاحبنا كان قدأدرك بثاقب رأيه سفاسف هذا الانهيار الروحي فنفر من الاوثان وعزف عن عبادتها وسخر من عقول قومه وعشيرته ، والتاريخ وان لم يحدثنا عنه بالخصوص من هذه الناحية ،

على دين ابراهيم الخليل ، فلما خرجت منهم حجابة البيت وليتها خزاعة فغيرت وبدلت واتفق أن سافر عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الى الشام ، فوجد قوما من العمالقة يعبدون الاصنام فسألهم عنها ، قالوا هـذه اصنام ، نعبدها ونستنصرها فننصر ، ونستسقى بهـا فنسقى ، فقال ألا تعطوني منها صنما فأسير به الى ارض العرب عند بيت الله الذي تفد اليه العرب فاعطوه صنما يسمى « هبل » فقدم به مكة ونصبه على الكعبة ، وهو أول صنم عرفته العرب ، ثم تفننوا بعـد ذلك في اوضاع الاصنام واشكالها وشاعت بين جميع القبائل وانتشرت حتى كان لكل قبيلة صنم خاص تعبده وتقدسه وتقرب اليه القرابين والنذور .

الا انه حدثنا بصورة عامة ان بوادر الانحلال والفوضوية كانت قد تسربت قبل الاسلام بقليل الى صفوف الوثنيين واخذت تتمشى بين أبنائها وشبابها، وان جماعة من العرب خرجوا على الاوثان عازفين عن عبادتها ساخرين بقومهم يتحدثون هنا وهناك ويقول بعضهم لبعض متذمرين « ياقوم فما حجر نطوف به لايسمع، ولا يضر وينفع، ومن فوقه تجري دم النحور، ياقوم التمسوا غير هذا الدين » وليس من البعيد ان يكون هاشم احد هؤلاء النافرين العازفين ومن جملة الساخرين بقومهم على تلك العقيدة الهازلة المأفونة، فان عقليته الجبارة ونفسه السامية الصافية ليقربان ذلك كل التقريب. على أن ايمانه القوي بالله بعد الاسلام وعقيدته الراسخة في الدين، وجهاده المتواصل فى سبيل اعلاء كلمة الحق كما سنقرأ ذلك كله في الفصول الآتية من هذا الكتاب، لتدلنا على مدى تغلغل التوحيد فى نفسه ونفاذه بعروقه وشرايينه واتصاله بما قبل الاسلام من ايام، ومن البعيد كل البعد أن نتصور كل هذه البصيرة فى الدين وليدة ساعة يوم الفتح « فتح مكة » وزبدة مخاضها، فان هذه الساعة لتعجز عادة أن تسبر كل هذا الغور من نفسه حتى تصل الى الاعماق فتجتث عروق الوثنية « لوكانت ثابتة » وتنثر مكانها بذور التوحيد والاسلام، ثم تجنى ثمرة هذا البذر فى تلك المدة القصيرة من الوقت وبهذه السرعة الفائقة من الزمان.

وعلى كل حال. فقد نشأ هاشم وشب بين قومه وعشيرته فى مكة،

وظهرت عليه آيات الشباب هناك كما ظهرت عليه آثار البطولة والجلالة حتى لفت بذلك أنظار قومه ومواطنيه مما دعا سعدا عمه الى ان يزف اليه ابنته المكناة دلالا « بامّ اسحاق » ويزوجه بها تقديراً له واعجاباً بمواهبه ومزاياه ؟

فى الاسلام

- ٤ -

ويصبح هاشم فيما يصبح ذات يوم فيرى قريشاً هنا وهناك ، قد اجتمعت حلقات حلقات ، يتندرون ويتضاحكون ، وربما استغرق احدهم في الضحك فارتفعت قهقهاته تشق الفضاء .

وراح هاشم يطيل النظر الى الجمع ويتأمل ، ثم أخذ يتأمل جيداً ويطيل النظر ويطيل ، ثم انكفأ يمسح ناظريه ليتأكد من صحة مايرى ، وماذا يرى .

أحلمٌ هذا أم خيال ، أم هو الواقع المحسوس وإن اشبه في العادة المحال ، أهذه حقاً قريش ، قد اجتمعت هذا اليوم تتنادر وتتضاحك ، وعهده بها متباعدة متباغضة ، يلوى الرجل منهم وجهه عن قريبه ويزويه حنقاً وكرها لايكاد يجمعهم حفل او مكان .

انّ طرفه لم يعوده الكذب ، وان سمعه لم يخنه من قبل ، وها هوذا يرى بعينيه قريشاً مجتمعة ، ويسمع ضحكاتهم تصك سمعه بين الآونة والاخرى مرة ومرات .

ووقف هنيهة بمكانه يفكر ، لأمر ما اجتمعت اليوم قريش بعد تلك القطيعة من الاعوام ، ولأمر ما كانوا يتندرون ويتضاحكون ، لابد من امر جديد ذي بال ، كان له كل هذا الاجتماع والضحك ، ثم انساب فى الجمع يأخذ طريقه بين الحلقات ، مرهف السمع ، حاد النظرات ، يسترق

المشاهد والاخبار .

وداعب سمعه صوت أخاذ ، عذب الرنين ، حلو النبرات ، خافت الى حد الخفاء ، يدغدغ السمع ولا يكاد أن يحس به ، كأنه يصدر من مكان سحيق ، بعيد القعر ، شاسع الاعماق ، ويلتفت هاشم مشدوهاً الى مصدر الصوت ، فيرى رسول الله صلى الله عليه وآله واقفاً ينادى فى الجموع وقد التفّت حوله عصابة من قريش ، قد ارتفعت اصواتهم بالسخرية والاستهزاء حتى ضيعت نداه ، وحالت بينه وبين المسامع والآذان ، ويمر عليه من يسأله يستوضح منه نداء النبي فيجيبه ذاك بلهجته الساخرة المزرية والابتسامة على شفتيه يقول « ان فتى ابن عبد المطلب ليتكلم من السماء » ثم يوشح حديثه بقهقهة عالية ويستمر فى شيء من النفرة والانكار يقول « انه يسفه احلامنا ، ويضلل اسلافنا ، ويعيب آلهتنا ، ويجعلها إلـهاً واحداً » ولم ينس وهو يخلف المكان لهاشم أن يرسلها قهقهة اخرى طويلة عالية لها صدى رنان .

ويبقى هاشم واجماً بمكانه تتناهبه شتى العوامل ، غارقاً فى لجة من الأفكار ، يعيد على نفسه كلمات صاحبه ، ويرددها مرة ومرات ثم يهب فجأة على صوت جهير ، فيرى الاخنس بن شريف ، وقد اقبل بالحديث على أبي سفيان بن حرب يقول .

— يا أبا حنظلة أسمعني رأيك !

— فيم ؟

— في الذي سمعته من محمد

— يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت اشياء اعرفها واعرف مايراد بها ، وسمعت اشياء ما عرفت معناها ولا مايراد بها

— وأنا والذي حلفت به كذلك « ثم يلتفت الى الحكم بن هشام يستطلع رأيه قائلا » وانت فقل لي يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فيلوى الحكم عنقه ، ويزم شفتيه على حقده ثم يفتحها بأقبح مايفتحها عليه ويقول بلهجة كلها حسد وبغض « ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، واعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هـذا ، والله لانؤمن به بدأ ، ولا نصدقه »

ويسمع هاشم كل هذا وامثاله فيضيفه الى ماوعاه قبل قليل من صاحبه فتهب فيه غريزة الخوف على شرف قبيلته ، وتهب فيـه غريزة الحسد لهذا الفتى الموهوب ، كما تهب فيه غريزة الحقد والانتقام من هذا الذي يذكر آباءه وآلهته بسوء ، تهب فيـه كل هذه الغرائز وتلتهب نارا حامية ، فتصم اذنيه وتعمى عينيه وتحيله الى قرشي جحود ، لايسمع إلا باذن قريش ، ولا يرى الا بعينها وكما كانت تنظر الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يعيب آلهتها ويسفه احـلامها ، ويضلل آباءها ، ثم هو بعد ذلك كله الخصم والغريم ، ينازعها الرياسة والشرف ؛ ويجاذبها الزعامة يريد أن يستلبها منهم استلابا .

ولو قدّر لك أن ترجع الى الوراء وتنظر الى قريش عامة بدء الدعوة الاسلامية المقدسة لرأيتها من ألد أعداء هذه الدعوة حينذاك ، واكثر العرب ايذاء للنبي ، وأشدهم عليه هزءاً وسخرية ، حتى اقرباءه الادنين ، وحتى اولائك الذين اصبحوا بعد الاسلام مثار الاحترام والتبجيل ، لم يسلم من لسانهم النبي ، إن كان قد سلم من يدهم ولم يتعرضوا له بأذى وسوء فما بالك بصاحبنا هاشم ، وهو فتى فى ريعان الصبا ، وغضارة العمر له من فتوته وطيش الشباب ونزواته مايدفعه عادة عن طريق السداد ، ويجنبه جادة الروية والتفكير .

على ان التاريخ لم يتعرض له بسوء ، ولم يسجل عليه فى تلك الفترة المظلمة زلة يد أوهفوة لسان بالنسبة الى النبي الكريم ، على كثرة ماسجل على شيوخ قريش وشبابها من الهفوات والزلات ماينبذى له جبين الحق وتنكره المروءة والشهامة ، ومن الخطل في التفكير أن نتصورهاشماً فى ذلك الحين من الخمول مايجعله فى صف العامة ورعاع الناس بحيث يصح للتاريخ أن يهمله (مهما يعمل ويقل) فى جملة من يهملهم من الخاملين والعامة ، فقد كان من جملة اعلام العصر الجاهلي وإن لم يبلغ فى السمو مايجعله فى الصف الأول من اولئك الاعلام .

ويبقى هاشم هكذاوعلى ما كانت عليه الاكثرية من قريش الى أن فتح الله على نبيه مكة ففتح معهاقلبه للاسلام وهداه الى دين النبى الكريم فأقبل فى مقدمة من اقبل يصافح رسول الله ويملأ كفه وقلبه معاً بالتوحيد والايمان ، وبقى دائباً على صحبته ، مجداً في خدمته ، عاكفاً

على دراسة مبادئه واحاديثه حتى عدّ من الأفضل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخيارهم وفي طليعة من ساهم فى توسعة الرقعة الاسلامية ونشر قوانينه السامية ، وكان له فى ساحات الجهاد أيما أثر فعال .

فى الغدير

— ٥ —

وكما كانت قريش من ألد اعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدأ الدعوة الاسلامية كانت كذلك من ألد اعداء امير المؤمنين علي عليه أفضل الصلاة والسلام بدأ الدعوة العلوية ، واذا كان نصر الله والفتح قد خفف بعض الشيء من حدة اذاها للنبي والزمها عند حدها المحدود ، فانها وجدت بعد وفاته من يضافرها على اذى الامام ويسلس لها عنان الظلم والطغيان ، حتى اوفت له الحقد والبغضاء ووفرت له فيها حسبما تشتهي وتريد .

لم تكن قريش تهمها اوثانها حينما عارضت دعوة النبي ونصبت له له ذلك العداء بقدر ما كان يهمها سلطانها ، وكذلك لم تكن قريش ليهمها اسلامها حينما عارضت دعوة الامام ووفرت له العداء بقدر ما كان يهمها امر ذلك السلطان وكما تسترت اولا بالأوثان تدافع به عن زعامتها تسترت اخيراً بالاسلام لتبتز الخلافة من اهلها ، فلما وجدت اليها سبيلا بادرت من خلف الستر سافرة بالعداء تكيل للامام الف صاع بصاع .

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتقي بصولة عمه حمزة وبطولته عدوان قريش ، وكان يلوذ بشرف عمه أبي طالب عن اذاها ، وكان يستعين بجعفر عليها ، وكان له وكان من يمتنع به عنها ، ومع ذلك كله فقد آذته قريش واضجرته حتى قال « ما اوذي نبي بقدر ما اوذيت » فما بالك

بحال من لاحمزة له ولا جعفر ، وليس له من يمتنع به عن عدوان قريش سوى شبح زوجته الواهن العليل وطفلان صغيران لا يملكان الا البكاء ، هذا كل ما كان يملكه الامام من قوة ، فى مقابل جيش قريش العاتي الجبار ، وقد نظم الحقد صفوفهم ، وألف الحسد بين قلوبهم فتضافروا على ظلمه وتحاوشوه من كل صوب ومكان ، أما وصية رسول الله فيه بحديث يوم الغدير ، واما احاديثه الاخرى التي تلزمهم بحبه وتعظيمه ، والتي كان يكررها النبي دائماً وفى جميع المناسبات فليس بعزيز على قريش أن تسحقها وتتناساها اذا اعجزها النسيان ، وتصنع بعد ذلك ماتريد ، مادامت ترى في الامام شخص النبي واترها وخصمها القديم ، وترى فيه علياً واترها وخصمها الجديد ، قيل للامام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام « ما اشد بغض قريش لابيك علي ، قال لأنه اورد اولهم النار ، والزم آخرهم العار »

ليس بغريب ان تكون قريش هكـذا مغرس الظلم ومنبت الشر ، ومثار الفتنة ومكمن الشيطان ، ولكن من الغريب ان تكون قريش هذه ، منبع الحق والعدل ، ومصدر الخير ، ومورد السعادة والسلام ، وليس من الغريب ايضاً ان يكون فى جملتها من يحدثنا التاريخ بأسوء ما يحدثنا عنهم ، ولكن من الغريب جداً ، أن يكون بين افرادها مثل النبي والامام ومثل من يحدثنا التاريخ بأحسن مايحدثنا عنهم ، وما الحقد والحسد فى هـذه القبيلة بشيء جديد على الناس ، فتلك غريزة متأصلة فى نفوسهم نمت عليها اصولهم وزكت فروعهم ، وانما الجديد أن يكون العفو والتسامح

وحسن السريرة سجية بعض افرادها وجزء لا يتجزء من طبيعته واخلاقه

يقول الخليفة عمر بن الخطاب فى حديثه مع أبي موسى الاشعري والمغيرة بن شعبة (١) « لو كان الحسد يدرك بحساب لكان لقريش تسعة اعشار ، وللناس كلهم عشر واحد بل وقريش شركائهم فيه أيضاً » وهو قول له قيمته المعنوية خصوصاً اذا صدر من مثل ابن الخطاب .

بهذا عرفت قريش منذ أن عرفت ، وبهذا واكثر منه حدثنا منطق الحوادث وسجله التاريخ ، ما كاد النبي الكريم يقوم فيهم داعياً الى الحق والسداد يرشدهم الى الخير حتى وثبوا فى وجهه حاقدين حاسدين ، وانهالوا عليه بأيديهم والسنتهم يعتدون ويسخرون ، ولم يكد امير المؤمنين يتم تجهيز رسول الله ويتجه الى ادارة شئون الاسلام ومباشرة حقه حتى حركهم الحقد والحسد فاستعادوا وثبتهم تلك واعتدوا عليه باليد واللسان حتى سلبوه ماخصه الله به من الحق وما وصى به رسول الله خصوصاً بحديث يوم الغدير .

ورحم الله حديث يوم الغدير ، فلقد مات شهيداً محتسباً ، خنقته السياسة الانتهازية الجائرة ، ودفنته الغايات والاطماع ، ثم جاء معاوية بن أبي سفيان فأعفى أثره واسبل عليه ستار النسيان .

من الغريب جداً أن يعرض المسلمون الأولون عن حديث يوم الغدير وتصدهم عنه زخرف الحياة الدنيا ، ومن الغريب جدا أن يتناسى الصحابة بالخصوص هذا الحديث ولما يكد رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد طبع مصر ١ : ١٢٥ .

يغيب عن انظارهم ، واغرب من هذا وذاك ان ينكره بعض المؤرخين والكتاب ثم يدعون الحرية في البحث ومجانبة الطائفية والنعرات .

لم يكن حديث يوم الغدير حديثاً خرافياً وضعته طائفة خاصة من المسلمين تأيد به مزاعمها وتستدل به على آرائها ومعتقداتها حتى يكون فيه مجالا للتشكيك والانكار فقد اعترف به جل المسلمين واجمعوا عليه على اختلاف مذاهبهم وتباين آرائهم وإن افترقوا في تفسيره وتضاربوا على تأويله ، ولاهو بالحديث الموهون ينقله الآحاد ويتشدق به الافراد ، فقد تواترت الاخبار به وتناولتـــه الصحاح وتناقلته امهات الكتب للسنة والشيعة ، ثم هو بعد هذا وذاك واضح الدلالة جلي القصد ، سافر المعنى لا يحتمل التأويل ، يدل بمفهومه ومنطوقه ويقصر الخلافة بعد النبي على الامام عليّ حسب وبلا فصل ، دع عنك احاديث اولئك المهرجين الذين يلتمسون فى تأويله المحال مع شدة اهتمام النبي به أو تحكم بسخافة رسول الله وحاشاه ، والا اعجزك التوفيق بين حـــديث رسول الله وتأويل هؤلاء .

كل هذا حق وان ارتاب فيه المبطلون ، ولكن شيئاً واحداً لايزال الى اليوم مثار المناقشة والاختلاف بين الباحثين والكتاب ، يدور بمجموعه حول عدم احتجاج الامام بهذا النص بعد وفاة رسول الله وفي يوم السقيفة مع مسيس الحاجة الى مثله حينذاك واضطرار الامام الى مايأيده ويثبت حقه على الناس .

وهذه شبهة قوية فى الظاهر جداً ، تدحرج حـديث النص حتى

تصل به الى هوة الشك والترديد ، ولكنهـا في الواقع ضرب من المغالطة لاتثبت للتحليل ، ولاتقف امام الواقع ، اريد بها الزيغ والتضليل .

ولو تأملت معي قليلا ورجعنا بالفكر الى يوم السقيفة حتى نقف على المهاجرين والأنصار كاننا نرى ونسمع مايدور هناك لرأينا أن احاديث القوم كلها كانت تدور وتدور ثم ترتكز عند نقطة واحدة فحسب وتتعلق بشخص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا بأحاديثه ، ولا بوصاياه ، ولا بأيّ مرجح من مرجحات الزعامة والخلافة .

فالأنصار يرون الخلافة وقفا على من آوى النبي ونصره ، والمهاجرون — لو جاز ان يكون لسان حالهم عمر — يرون الخلافـة مقصورة على اقربائه وعشيرته فاين المجال الذي يسع النص في تلك الساعة المرتجلة ، وماذا ينفع الامام الاحتجاج به وهل تدحض الحجة الا بحجة مثلها ، ولذا احتج الامام على المهاجرين بمثل ما احتجوا به هم على الانصار ، ثم تعال معي نساير ركب أبي بكر وانصاره حتى ندخل معهم مسجد رسول الله في اليوم الثاني ، فنراهم في الطريق يخبطون من يروه ويمسحون بيده على يد أبي بكر شاء ذلك أم أبى كما يقول الرواة ، ونسمعهم في المسجد يحتجون على صحة خلافته بكبر سنه ويرغبون العامة به على بيعته ، فمـاذا يصنع الامام بعد ما رأيت وسمعت بحديث النص ، أيفل به تلك القوة ام يزيده من العمر مايجعله في السن اكبر من أبي بكر ، مقاييس جاهلية استعارها القوم من ماضيهم وقاسوا بها الخليفة ، ليس لحديث النص الاسلامي معها مجال ولا مقام .

ويروى (١) أن أبا بكر كتب الى أبيه أبي قحافة لما تولى زمام الامور وجلس فى مقعد الخلافة يقول — من خليفة رسول الله الى أبي قحافة ، اما بعد ، فان الناس قد تراضوا بي ، وانى اليوم خليفة الله ، فلو قدمت علينا كان اقر لعينك . فلما قرأ أبو قحافة الكتاب قال للرسول مستغرباً : مامنعكم من علي ؟

— هو حدث السن ، وقد اكثر القتل في قريش وغيرها ، وابو بكر أسن منه .

— مبتسما في سخرية — ان كان الأمر في ذلك بالسن ، فانا احق من أبي بكر بهذا الأمر ، لقد ظلموا علياً حقه ، قد بايع له النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمرنا ببيعته ، ثم أمر أن يكتب الى أبي بكر عن عن لسانه يقول — من أبي قحافة الى ابنه أبي بكر ، أما بعد ، فقد اتاني كتابك فوجدته كتاب احمق ينقض بعضه بعضاً ، مرة تقول خليفة رسول الله ، ومرة تقول خليفة الله ، ومرة تقول تراضى بي الناس ، وهو أمر ملتبس فلا تدخلن في أمر يصعب عليك الخروج منه غدا ، ويكون عقباك منه الى النار والندامة ، وملامة النفس اللوامة لدى الحساب بيوم القيامة ، فان للامور مداخل ومخارج ، وأنت تعرف من هو اولى بها منك فراقب الله كأنك تراه ، ولا تدعن صاحبها ، فان تركها اليوم اخف عليك واسلم لك — هكذا كتب أبو قحافة لابنه أبي بكر ينعى اليه هذا المقياس الجاهلي ويرشده الى صاحب الحق الشرعي الذي بايع له رسول الله وأمر

(١) راجع احتجاج الطبرسي . الطبعة الاولى — ٥٧

الناس ان يبايعوه يوم الغدير .

على ان الامام لو اراد أن يحتج بحديث النص فى ذلك اليوم وفي تلك الفوضوية الروحية ، فمن يأترى سيشهد له بهذا الحديث ، ومن هو الذي سيترك شهواته واطماعه ويغضي عن حسده وحقده اغلب الظن ان الامام لواستشهدهم به حينذاك لحرف اكثر المسلمين وادعوا الكبر والنسيان كما ادعى ذلك — أنس ابن مالك — (١) حينما استشهده به الامام فى رحبة الكوفة .

وبعد هذا كله فقد احتج به الامام واحتج مراراً . احتج به فى اليوم الثاني من السقيفة حينما ادخل على أبي بكر للبيعة في مسجد رسول الله (٢) وقال يخاطب الحاضرين — يامعشر المسلمين والمهاجرين

(١) أنس : بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر ابن غنم بن عـــدي بن النجار . أبو حمزة الانصاري الخزرجي خادم رسول الله المكثرين من الرواية عنه : مات في البصرة سنة تسعين للهجرة وكان عمره على اصح الروايات « ١٠٧ » سنين : وكان من المنافقين المنحرفين عن الامام الذين يكتمون الشهادة : استشهده الامام يوم الرحبة في الكوفة عن حـديث النص وكان حاضراً يوم الغدير فأبى عن الاقرار ونكص عن الشهادة وقال معتذراً — ياامير المؤمنين كبرت ونسيت — فقال الامام داعياً — اللهم ان كان كاذبا فارمـــه ببيضاء لاتواريها العمامة — يقول طلحة بن عمير فوالله لقد رأيت الوضح - يعني البرص - به بعد ذلك ابيض بين عينيه : وروى عثمان بن مطرف . ان رجلا سأل أنس بن مالك في آخر عمره عن الامام فقال انس اني آليت ان لا اكتم حديثاً سئلت عنه في (علي) بعـد يوم الرحبة ، ذاك رأس المتقين يوم القيامة سمعته والله من نبيكم .

(٢) راجع كتاب سليم بن قيس (٧١) .

والانصار ، أنشدكم الله ، أسمعتم رسول الله يقول يوم غدير خم — من كنت مولاه فعلي مولاه — الحديث ، فبادره أبو بكر بحذلقة بارعة — وقد احرجه الموقف — يصدقه ويقول بلهجته الهادئة الرزينة — كلما قلت حق ، قد سمعناه بآذاننا ، ووعته قلوبنا ولكن قد سمعت رسول الله يقول بعد هذا — انا اهل بيت ، اصطفانا الله واكرمنا ، واختار لنا الآخرة على الدنياوان الله لم يكن ليجمع لنااهل البيت النبوة والخلافة — فقال له الامام هل احد من اصحاب رسول الله شهد هذا معك ، فبهت أبو بكر واسقط في يده وكاد يفتضح على مازعمه عن رسول الله لولا ان عمر ساعده يتلافى الموقف يقول — صدق خليفة رسول الله قدسمعته منه كما قال — ولسنا الآن في مقام التعليق على هذاالخبر ويكفي القارىء ان يقرأ قصة الشورى ليقف بنفسه على كذب هذاالخبرووضعه ومناقضة عمر قوله وشهادته باختيار الامام في الشورى وجعله احد الستة المرشحين للخلافة . وحسبنا الآن ان نثبت صحة حديث النص و احتجاع الامام به مراراً .

ثم احتج به في يوم الشورى أيضاً(١) وفي خلافة عثمان (٢) وفي خلافته في رحبة الكوفة (٣) ويوم الجمل على طلحة (٤) ويوم الركبان

(١) تجد الخبر مفصلا في كتاب الغدير للعلامة الاميني ١ : ١٤٦

(٢) » » » » » » » » » ١ : ١٥٠

«٣» » » » » » » » » ١ : ١٥٣

«٤» » » » » » » » » ١ : ١٧١

في الكوفة (١) وقد شهد له جماعة من الصحابة في ذلك اليوم كان من جملتهم صاحبنا المرقال استشهده الامام فشهد وقص الحديث على الناس كما املاه عليه الواقع وسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وانه ليذكر تماماً ذلك اليوم القائظ الشديد الحر في رمضاء غدير خم الكاوية وقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم أن ينزل المسلمون فيه ويحطوا الرحال حينما كان راجعاً من حجة الوداع ثم اشرف عليهم من منبره الذي اتخذوه له من اكوار الابل وجعل ينادي وقد اخذ بيد الامام ورفعها عالياً حتى بان بياض ابطيهما وقال — ايها الناس من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، انه ليذكر هاشم ذلك كله ويذكر معه قول الخليفة عمر بن الخطاب وقد اقبل بالحديث على الامام باسما يقول — بخ بخ لك ياعلي ، اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة — لم ينس هاشم ما دار في غدير خم من الاقوال والافعال كأنه امامه في كتاب مفتوح وقد قصه على المسلمين ذلك اليوم الذي استشهده فيه الامام والقاه عليهم كما سمع ورأى واملاه عليه الواقع البعيد .

---

(١) تجد الخبر مفصلا في كتاب الغدير للعلامة الاميني ١ : ١٧٢ .

الى الجهـاد

— ٦ —

مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمات معه الايمان ، لأنه كان روحه واصل حياته ، فلما مات مات معه ، وجفّ في نفسه معين الحياة ، وحسبك أن تنظر الى المسلمين بعده لتراهم — كغنم فقدت راعيها في ليلة شاتية ممطرة مظلمة — على حدّ تعبير السيدة عائشة ، قد اختلط حابلهم بنابلهم متباغضين متنافرين ، فرقتهم الأهواء ، ومزّقتهم المطامع ، حتى عادوا متحيّزين شعوباً وقبائل كأنهم في عهد جاهليتهم الأولى .

ولكن شيئاً واحداً بقي وحده بعد النبي ثابتاً في مكانه ، صامداً في قلوب المسلمين كالطود ، لم يؤثر فيه كل ما نزل بالاسلام ، وربما قوي وازداد نشاطاً بعض الشيء كلما عصفت عواصف الطمع في قلوب المسلمين وازدحموا في معرض الدنيا يتسابقون على لذّاتها ، وكأنّ الله سبحانه وتعالى تلطّف على الاسلام ومنّ على نبيّه الكريم والنخبة الصالحة من أصحابه البررة فأشاع الطمع في قلوب المسلمين ليزدادوا بذلك حماساً الى الجهاد ، ويبثوا الدعوة الاسلامية في أقطار الأرض من حيث يدرون ولا يدرون .

بقي حبُّ الجهاد وحده ثابتاً في القلوب ، وإن تغيّر لونه في

أكثرها وصبغته الغايات والأطماع بلونها الخاص حتى أخرجته عن شكله الأول ، ولكنه مع ذلك جهاد مثمر مشكور ، كان له كل الفضل في توسعة الرقعة الاسلامية ونشر مبادىء الدين الحنيف بين أرجاء هذه المعمورة .

وليس من شك في أنّ للخليفتين أبي بكر وعمر أثراً كبيراً ظاهراً في توجيه الناس الى الفتوح وادارة شئونهم في كل تلكم البعثات المباركة ، ولكننا لا نستطيع أن نقول أنهما كانا سبب الأسباب في جميع ما فتح الله على المسلمين كما يتصور بعض الناس ، وأغلب الظن أن لو كان مكانهما غيرهما حينذاك من سائر المسلمين لما غير التاريخ حرفاً من حروفه في أخبار الجهاد ، ولحدّثنا بمثل ما حدّثنا على الأقل عنها وعن تلكم الفتوحات والتوسعة ، لأنّ المسلمين كانوا بعدّة دوافع متهيئين يومئذ للجهاد ، وكانت ظروفهم تساعدهم على التقدّم والاحتلال ، لضعف الامبراطوريتين الروميـة والفارسية وكثرة الاختلاف والفرقة حينذاك في صفوفهم .

على أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد هيأ الجو لمن بعده في الفتوح وغرس فكرة غزو الروم والفرس في نفوس المسلمين وتعاهدها بالنمو فيما بشّر به وأخبر الناس باحتلال الدولتين وساعد على كل ما من شأنه أن يحفز الجيوش للغزو ويدعو المسلمين الى الجهاد . فكان يقول صلى الله عليه وآله وسلم — وقد سُئل عن أفضل الناس — : « إنّ أفضل

الناس مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله قيل له : ثم من ، فقال : مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شرّه » — وعن أبي هريرة قال : « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : دلّني على عمل يعدل الجهاد ، فقال رسول الله : لا أجده ، هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟ فقال الرجل : ومن يستطيع ذلك » ؟ الى غير ذلك من الروايات والآيات التي رغّب فيها المسلمين أشدّ الرغبة يحثهم على الغزو والجهاد .

هذا ولو أردنا أن ننظر من خلال الحوادث التاريخية نظرة السياسي الماهر الخبير ، وبعين بصيرة نفّاذة تطّلع على مكنونات السرائر لرأينا أنّ أغلب ما بذله الخليفة أبو بكر من الجهود في تجهيز الناس ، وحثّهم على الجهاد كان بدافع خاص ولمصلحته الشخصية قبل أن يدفعه دافع الاسلام وبحثه الصالح العام على كل ذلك الحث والتجهيز أراد أن يشغل المسلمين بأنفسهم عن الخوض في خلافته والتدخل في امور الزعامة والسلطان ، وما من شيء أعدى وأخطر على الزعيم دائماً وفي كل وقت من تدخل الأمّة في شئون الدولة وتفرغ الشعب للمناقشة والحساب ، ومن هنا نعرف مدى الصدق والاخلاص في لهجة عبد الله بن عامر عامل عثمان بن عفان حينما انتقضت امور الدولة على الخليفة وتفاقم الخطب فاستشاره فيمن جمعهم واستشارهم من امرائه يلتمس الرأي والخلاص ،

قال له ابن عامر : — أرى لك أن تجمهرهم في هذه البعوث حتى يهم كل رجل منهم دبر دابته ، وأشغلهم عن الأرجاف بك — وهو قول يدلُّ على حنكة ابن عامر وخبرته السياسية وقد شخّص الداء وعيّن الدواء ، وقد أخطأ عثمان كثيراً وبقدر ما أصاب ابن عامر حينما أعرض عن الأخذ برأيه ، وما مصرعه الشنيع وكل ما نزل به وبأهل بيته وما أصاب المسلمين من الاختلاف والفرقة بعد ذلك إلا نتيجة هذا الخطأ وثمرة ذلك الاعراض .

بقي شيء واحد لابد لنا أن نتعرّض اليه في هذا الفصل ، وإن لم يكن داخلاً في صلب الموضوع ونافذاً في صميم هذا الباب ، بقي علينا أن نحد معنى الجهاد ونبيّنه هنا كما يريده الاسلام ويقصده المشرّع الاسلامي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لكثرة ما مرَّ على هذا اللفظ من التطوُّر والانحراف .

والجهاد الذي يقصده الاسلام هو الكفاح في سبيل الفضيلة ولأجل بقاء الأصلح ومحاربة الشرور والفساد ، ولاشك أنّ في مثل هذا الجهاد خدمة للانسانية وتهذيباً يساعدها على القوة والنماء ، وحسبنا دليلاً على تشريعه حكم العقل بحُسنه باعتبار أنّ الحُسن العقلي والوجوب الشرعي متلازمان كما يقول الفقهاء ، ومن هنا نجد الجهاد فرضاً لازماً في جميع الشرائع والأديان على تغاير ألوانها واختلاف عصورها وأزمانها . وقد اهتم به الاسلام اهتماماً بالغاً بقدر ما أخذ على نفسه في نشر الفضيلة

ومحاربة الشرور والفساد ، فهذّب منه ما يتنافى وروحه السامية الرؤفة وأدخل عليه من التحسينات ما جعله في مقدمات الواجبات الكفائية من قانونه ، وبهذا المقدار نكتفي هنا في حدّ الجهاد ، وللكلام به تفصيلاً محل آخر غير هذا الكتاب ؟

فى الشام

— ٧ —

وكان الخليفة أبوبكر رجلاً المعياً فيه حزم ، وفيه دهاء ، وفيه كل ما في الشيوخ من حنكة وتجربة وحكمة وهو بعد هذا كله عربيٌّ ومسلم ، تعاونت عليه طبيعته واسلامه حتى أحالاه الى شعلة من كفاح فلم يكد ينتهي من قتال المرتدّين حتى جهز جيشاً الى الشام لغزو الامبراطورية الرومية وجهادها .

ويدعو الواجب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للجهاد ، فيستجيب لدعوته المؤمنون الأبطال ويسير بطلنا المرقال فيمن يسير من قريش الى الشام حتى ينتهي به المطاف على مدينة بعلبك ويقف في جانب أبي عبيدة بن الجراح على أبوابها ضارباً عليها حلقة من الحصار .

ولما طال مكثه حول المدينة ، وأصرّ أهلها على التحصن والامتناع ثارت به بطولته الجيّاشة فتقدّم وحده نحو المدينة حتى أشرف عليها — وكان قد بلغه خوف بطريقها وعزمه على الصلح — ثم صعق بأهلها يهدّدهم ويخوّفهم ويقول : — يا أهل بعلبك ، حصّنوا أنفسكم وأولادكم وأموالكم بالصلح ، فان أبيتم ذلك ، فقد وعدنا الله تبارك وتعالى على لسان نبيّه محمد أن يفتح لنا بلادكم وأمصاركم وغيرها ، وإنّ الله تعالى منجز أمره — فارتجت بعلبك من صحيته ، وهاج أهلها من الجزع والخوف ، واستسلموا أخيراً للجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، فارتحل هاشم عنهم في جيش أبي عبيدة حتى أشرفوا جميعاً على مدينة حمص ونزلوا في ضواحيها فراسل أبو عبيدة زعيم حمص يخيّره بين الاسلام والجزية والحرب ، فلما

اختار الحرب تقدّم المسلمون نحو المدينة ، فقصد هاشم بكتيبته باب — الرستق — فبادر الروم وأخذ يناوشهم القتال حتى أضجرهم وحجز بينهم الليل ، ولما أصبح الصباح راسل أمير حمص أبا عبيدة ؛ واتفق معه على أن يموّن جيش المسلمين ويزوّدهم بكل ما يحتاجون اليه من الزاد والطعام على أن يرحلوا عنه ويتركوا له المدينة فترك هاشم مدينة حمص وارتحل مع الجيش فنزل على مدينة (الرستن) .

وكانت مدينة الرستن منيعة جداً محصنة الى أبعد حد ، قد استعد أهلها للقتال وادخروا كل ما يحتاجون اليه ، فلما رأى هاشم ذلك أيس من فتحها بالقوّة والتجأ الى معلوماته العسكرية يقلّبها عله يجد من بينها طريقاً الى الفتح ، ثم اجتمع فيمن اجتمع عند أبي عبيدة من القادة والزعماء ، وأخذوا يتداولون الرأي ، ويرسمون الخطط للقضاء على أهل الرستن وفتح بلادهم ، فلم يجدوا خيراً من أن يجعلوا عشرين بطلاً من المسلمين في عشرين صندوقاً تكون الأقفال عندهم في داخلها ثم يحتالون على أهل الرستن في ايداعها عندهم بحجة أنها متاع أثقلهم حمله ثم يتظاهرون بالجلاء ، حتى إذا صارت الصناديق في وسط المدينة واطمأن أهل الرستن بعض الشيء هبّ من فيها وثاروا على حين غرة ، وفتحوا أبواب المدينة فيدخل جميع المسلمين ويساعدونهم على فتح البلاد وقتال أهلها . وهكذا أخذوا عشرين صندوقاً ، وشرعوا في تنفيذ الخطة ، ففتحوا أسافلها وجعلوا الأقفال من داخلها ، ثم هيئت لدخول الأبطال فيها ، ولكن من الذي سيقوم بهذه المهمة ، ويدخل في هذه الصناديق

ويكون أداة التنفيذ ، هنا المشكلة ، فقد جعل الأبطال ينظر بعضهم الى بعض ويجبن أحدهم الآخر ، ومن ذا الذي يملك جناناً كزبر الحديد وقلباً كالصخر صلب الايمان ، حتى يستطيع أن يضحي بنفسه كل هذه التضحية ، ويدخل في صناديق الموت ، فيكون قرباناً للمصلحة العامة وباباً لفتح مدينة الرستن . كل الجيش سكوت ، قد ران عليهم الخوف كأنّ على رؤسهم الطير يختفي بعضهم ببعض حتى كادت الخطة أن تفشل ، وهنا ينفتل من بين الجيش بطل جسيم عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين عظيم الهام يخط سيفه في الأرض قد أعلم للحرب ، تنمّ مشيته على بطولته ، وتشع الشجاعة من بين عينيه ، ثم راح يطوي نحو الصناديق والأبصار تتبعه من كل مكان ، وتتناهبه من جميع الجوانب ، وما هي إلا لحظة عرفه الجيش بأجمعه وتجاوب من جميع أطرافه ينادي: المرقال . المرقال . هاشم بن عتبة وهكذا أخذت تتابعه بالنداء حتى توارى في أحد الصناديق وغاب عن الأبصار وتوارى خلفه نخبة من الأبطال حتى امتلأت الصناديق جميعاً واقفلت من داخلها ، فأرسلها أبو عبيدة مع رسوله الى مدينة الرستن يعرض ايداعها على أهل المدينة ، فقبلوها وأخذوها منه ووضعوها في قصر زعيمهم ـ نقيطاس ـ ثم تظاهر المسلمون بالجلاء وارتحلوا عنهم حتى ابتعدوا عن الرستن ونزلوا في قرية ـ السودية ـ وانحازت سرية منهم قافلة راجعة متخفية بستار الظلام فكمنت في مدينة الرستن ترتقب الساعة الموعودة

ولما مضى هزيع من الليل هرع أهل الرستن الى كنائسهم يرفعون آيات الشكر للثالوث ويرتجزون بالثناء حول الصليب على جلاء المسلمين عن مدينتهم ، وهكذا حتى اشتغلوا بالعبادة والدعاء ، وبأسرع من أن يرفع أهل قصر نقيطاس أصواتهم خرج هاشم وأصحابه من

الصناديق وقبضوا على ما هنالك من النساء فاستخرجوا منهن مفاتيح أبواب المدينة ثم كبروا تكبيرة واحدة رددصداها المسلمون من الخارج ، وما هي إلا ساعة تناوشوا فيها مع أهل المدينة بعض القتال حتى فتحوا البلاد واحتلوا جميع نواحيه (١) وبعثوا بشيراً الى أبي عبيدة بالفتح فسجد أبو عبيدة — كما يقول المؤرخون — لله شكراً وبعث اليهم هلال بن مرة في الف فارس من أهل اليمن ليخلفوا المجاهدين في الرستن ويرابطوا هناك حامية للمدينة ، فلما وصل هلال بفرسانه توجه هاشم بالمجاهدين الى مدينة — شيزر — وقد نكثوا عهود الصلح مع المسلمين وخرجوا عليهم يناصبون لهم العداء ، فلم يفجأ أهل شيزر إلا والمسلمون حول حصنهم

(١) تكاد تكون رواية فتح مدينة الرستن من قصص الف ليلة وليلة ، ومن الأساطير الخرافية ومخترعات الوضاعين والقصصيين لو لم تكن مسبوقة بحادثة مثلها تقريباً كثيرة الشبه بها الى حد بعيد ، وقد سجلها التاريخ وتسالم المؤرخون القدماء على صحتها ، فان صحت تلك صحت هذه وكانتا دليلا على حنكة القيادة العربية حينذاك وسمو تفكيرها العسكري ، والا فهما يمثلان نوعاً من أنواع القصة العربية ومدى ما وصل اليه الخيال في تلك الظروف ، وفي الحالتين لم يعدم القاري بذكرها فائدة وخبرة ، وتلك الحادثة كما يجملها الميداني في مجمع الأمثال في مثال « خطب يسير في خطب كثير » هي أن الزباء ملكة الجزيرة لما احتالت على جذيمة الأبرش وقتلته عزم وزيره — قصير — على طلب ثاره فجاء الى عمرو بن عدي وقال له : تهيأ واستعد ، ولا تبطلن دم خالك ، فقال له عمرو : وكيف لي بها وهي أمنع من عقاب الجو ، فذهبت كلمته مثلا : وكانت الزباء سألت كاهنة لها عن هلاكها فقالت لها الكاهنة : أرى هلاكك بسبب غلام مهين غير أمين وهو عمرو بن عدي ، ولن تموتي بيده ولكن حتفك بيدك ومن قبله ما يكون ذلك ، فحذرت الزباء عمرو بن عدي واتخذت لها نفقاً من مجلسها الذي كانت تجلس فيه الى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : ان فجأني أمر دخلت النفق الى حصني ، ثم دعت رجلا مصوراً من أحسن —

قد تكاثروا عليهم واستعدوا للقتال ، فوقعت الضجة في مدينتهم من

ـ أهل بلاده تصويراً وأتقنهم عملا فجهزته وأحسنت اليه وقالت له : سرمتنكراً حتى تقدم على عمرو بن عدي بالحيرة ، فتخلو بحشمه وتنضم اليهم وتخالطهم وتعلمهم ماعندك من العلم بالتصوير ، ثم ائت لي عمرو بن عدي معرفة فصوره جالساً وقائماً وراكباً ومتفضلا ومتسلحاً بهيئته ولبسه ولونه ، فاذا أحكمت ذلك فأقبل الي ، فانطلق المصور حتى قدم على عمرو بن عدي وصنع بالذي أمرته الزباء ، وبلغ في ذلك حسب ما أوصته به ، ثم رجع اليها بجميع ما وجهته له ، وجاء بالتصاوير على ما وصفت وأرادت ، فكانت تنظر الزباء الى عمرو في جميع حالاته حتى أثبتته معرفة وتحذرت منه ، ولما رأى قصير تقاعس عمرو وتقاعده عن حرب الزباء قال له : أجدع أنفي واضرب ظهري ودعني واياها ، فقال عمرو : ما أنا بفاعل ، وما أنت مستحقاً لذلك عندي ، فقال قصير : خل عني اذن وخلاك ذم ، فذهبت مثلا ، فقال له عمرو : فأنت أبصر ، فجدع قصير أنفه ، وأثر آثاراً بظهره ، فقالت العرب : لمكر ماجدع قصير أنفه ، فذهبت مثلا وفي ذلك يقول المتلمس :

وفي طلب الأوتار ما حزّ أنفه * قصير ورام الموت بالسيف بيهس

ثم خرج قصير كأنه هارب وأظهر أن عمرو بن عدي هو الذي فعل كل ذلك به لأنه أتهمه بقتل خاله جذيمة وتآمره مع الزباء عليه ، فسار حتى قدم على الزباء ، فقيل لها ان قصيراً بالباب : فأمرت به فأدخل عليها فاذا أنفه مجدوع وظهره عليه آثار الضرب ، فقالت : ما الذي أرى بك يا قصير ، قال : زعم عمرو أني قد غررت خاله وزينت له المسير اليك ، وغششته ومالأتك عليه ، ففعل بي ما ترين ، فأقبلت اليك وعرفت اني لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك ، فأكرمته الزباء وارتاحت كثيراً بحزمه ورأيه حتى وثقت به وركنت اليه ، فقال لها : يوماً ان لي بالعراق أموالا كثيرة وطرائف وثياباً وعطراً ، فابعثيني الى العراق لأحمل مالي وأحمل اليك من بزها وطرائفها وثيابها وطيبها وتصيبين في ذلك أرباحاً عظاماً وبعض مالاغنى بالملوك عنه ، وكان أكثر ما يعجبها من العراق التمر الصرفان ، فلم يزل قصير يرغبها في ذلك حتى أذنت له ودفعت اليه أموالا ، وجهزت معه عبيداً ، فسار قصير بما دفعت اليه حتى قدم العراق وأتى الحيرة متنكراً فدخل على عمرو فأخبره الخبر ، وقال له : ـ

الخوف واختلفوا فيما بينهم يتنازعون ، فريق يرى الحرب وآخر يأبى إلا

- جهز لي بصنوف البز والأمتعة ، لعل الله يمكن من الزباء فتصيب ثارك وتقتل عدوك فأعطاه عمرو حاجته فرجع بذلك الى الزباء فأعجبها ما رأت وسرت كثيراً ، وازدادت به ثقة ، وجهزته ثانياً فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد اليها ثم عاد ثالثة وقال لعمرو : اجعل في ثنات أصحابك ، وهي الغرائر والمسوح ، واحمل كل رجلين على بعير في غرارتين ، فاذا دخلوا مدينة الزباء أقتلك على باب نفقها ، وخرجت الرجال من الغرائر ، فصاحوا بأهل المدينة ، فمن قاتلهم قتلوه ، وان أقبلت الزباء تريد النفق جلدتها بالسيف فاستعد عمرو وحمل الرجال في الغرائر مزودين بالسلاح ، وسار يكمن النهار ، ويسير الليل فلما صار قريباً من مدينتها تقدم قصير فبشرها واعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف ، وقال لها : آخر البز على القلوص فأرسلها مثلا ، وسألها أن تخرج فتنظر الى ما جاء به ، وقال لها : جئت بما ساء وصمت ، فذهبت مثلا فصعدت الزباء على قصرها واشرفت منه على الركب ، فأبصرت الابل تكاد قوائمها تسوخ في الأرض من ثقل أحمالها فتعجبت وسألت قصيراً تقول :

ما للجمال مشيها وئيـــدا * أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفاناً تارزاً شديدا

فقال قصير في نفسه — بل الرجال قبضـــاً قعودا — فلما دنا الركب من المدينة أمرت الزباء بفتح أبواب سورها ففتحت ودخلت الابل حتى كان آخرها بعيراً مر على بواب المدينة وكان بيده منخسة فنخس بها الغرارة يستعجل البعير ويحثه على الدخول ضجراً من كثرة الانتظار فأصابت المنخسة خاصرة الرجل الذي فيها فضرط فقال البواب باللغة الرومية : — بشنب ساقا — أي شر في الجوالق ، فأرسلها مثلا فلما توسطت الابل المدينة انيخت ودل قصير عمراً على باب النفق الذي كانت الزباء تدخله عند الشدة ، فوقف عمرو عليه ، وثارت الرجال بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح قتلا وطعناً حتى ضجوا ضجة واحدة ، وهربت الزباء تريد النفق فأبصرت عمراً فعرفته بالصور التي صورها لها المصور ، فهوت على خاتمها تمصه ، وكانت قد وضعت فيه السم ، وقالت وهي تمص الخاتم : بيدي لا بيد ابن عدي ، فذهبت كلمتها مثلا ، ثم تلقاها عمرو فقتلها بالسيف فقتلها وسلب مدينتها ورجع الى العراق بشاره زاخراً بالأموال والأسراء .

الصلح والسلام حتى التحموا فيما بينهم واشتعلت في مدينتهم حرب داخلية شعواء التهمت بنارها رئيس المدينة وجنده جميعاً ، وانتصر فيها الفريق الثاني أنصار السلام ، ثم بعثوا الى المسلمين بالهدايا والأموال يعتذرون ويطلبون منهم تجديد الصلح ، فقبل أبوعبيدة وجدد معهم وثائق الصلح . ثم سار بالمسلمين راجعاً الى غزو مدينة حمص .

وكان أهل حمص قد أخبروا برجوع المسلمين لغزوهم فاستعدوا للقتال أحسن الاستعداد ، واصطفوا خلف الأسوار بعدتهم وعددهم يرتقبون قدوم المسلمين فما كاد يطأ المسلمون ضواحي بلادهم حتى خرجوا اليهم مدججين مستلئمين كأنهم جبال من حديد ، وحملوا عليهم حملة واحدة عنيفة جداً أزاحوا أكثر المسلمين بها واضطروهم الى الانسحاب والفرار ، وثبت هاشم ونخبة من الأبطال المغاوير أمامهم وأخذوا يدافعون ويقاتلون ويقاتلون ويدافعون حتى إذا وجد بطلنا المرقال ثغرة في صفوفهم صاح بقومه بني زهرة وحرّض الأبطال على الهجوم واقتحم هو أمام الجميع يضرب بسيفه حتى انكشف الروم ورجعوا الى مدينتهم موصدين عليهم الأبواب .

ولما أصبح الصباح في اليوم الثاني بكّر الروم الى الحرب وبدؤا المسلمين بالقتال فانسحب هاشم بمن معه يمكر بالروم ويخادعهم ويظهر لهم الضعف والانكسار فلما تبعه الروم كرّ عليهم في جيشه كرّة واحدة احاطهم بها من جميع الجهات حتى ابيد الكثير منهم واستسلم الباقون للأسر فدخل المسلمون المدينة وأرغموا أهلها على الخضوع والاستسلام .

فى اليرموك

— ٨ —

ويسمع الملك هرقل بكل هذا الانتصار وفتوح المسلمين لمدينة بعلبك وحمص والرستن وشيزر ، فيغيضه ذلك كثيراً ، ويقلقه الى أبعد حد ، فيراسل جميع زعماء الروم ويتفق معهم على حرب المسلمين ، ثم يزحف هو في جيش عظيم جرّار ، يريد أن يحيط بالمسلمين من كل جهة ويأخذ عليهم الأطراف .

ويعلم بذلك أبو عبيدة فيعزم على الانسحاب بجميع الجيش الى اليرموك ليكون المسلمون وجهاً واحداً أمام الروم ، ثم يخلّف خالد بن الوليد مع نخبة من القادة الأفذاذ كبطلنا المرقال في أربعة آلاف فارس صنديد يحرسونهم من العدو، ويقلع هو بالمسلمين مستعجلاً يريد اليرموك .

ويرتفع ضجيج رحيل المسلمين عالياً يشقّ الفضاء فيسمعه من بالاردن من الروم ويظنوا أنهم قد هربوا خائفين من جنود الملك هرقل فيحثهم الطمع على الخروج لقتالهم ويستبقوا سراعاً يريدون الغارة على أطرافهم فيصدمهم خالد بكتيبته ويرجع باسلابهم الى أبي عبيدة وقد عسكر في ساحة اليرموك .

ويتبعهم بجيوشه (ماهان) قائد الملك هرقل ويقدّم أمامه جبلة بن الأيهم في ستين الف فارس من العرب المتنصرين ، فيسير جبلة بالمقدمة حتى يقف بدير الجبل على ثلاثة فراسخ من اليرموك ، ثم يزحف اليهم يهددهم

فيشيع الخوف والاضطراب في صفوف المسلمين .

ويلمس بطلنا المرقال آثار هـذا الخوف في جيشه كما يلمس ذلك جميع القادة والزعمـاء فيحزّ في نفوسهم ويجتمعون في جلسة عسكرية يتداولون فيها الرأي ويتشاورون .

خالد بن الوليد — يسبق الجميع بالحديث ويقول — اعلموا يامعاشر المسلمين ، ان القوم في ستين الف فارس وهم حزب الشيطان ، ونحن جميعاً ثلاثون الف فارس وراجل من حزب الرحمن ، ونريد أن نلقى هذا الجمع الـكثير الـكبير ، فان قابلنا جبلة بجمعنا كله كان ذلك وهناً منّا ولـكن ينتدب منّا أبطال ورجال الى قتال هؤلاء العرب المتنصرة .

هاشم المرقال — صدقت وأصبت .

أبو سفيان — لله درك يا أبا سليمان ، فلقد أصبت الرأي فاصنع ما تريد وخذ من الجيش ما أحببت .

خالد بن الوليد — إني قـد رأيت ان من الرأي أن نندب من جيشنا ثلاثين فارساً ، فيلقى كل واحد الفي فارس من العرب المتنصرة .

اصوات — من هنا وهناك — ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين .

أبو سفيان — يابن الوليد ماهذا الكلام ، أجد هو منك أم هزل

خالد — متحمساً — لا وعيش عاش فيه رسول الله ما قلت الاجدا

أبو سفيان — فتكون بذلك مخالفاً لأمر الله تعالى ، ظالماً لنفسك وما اظن ان لك فى هـذه المقالة مساعدا ، ولو قاتل الرجل منا مأتين كان ذلك أسهل من قولك يقاتل الرجل منا الفين ، وان الله عز وجل رحيم

بعباده ، فرض علينا ان الرجل منا يقاتل الرجلين ، والمائة المائتين ، والألف الألفين ، وإنك تقول ثلاثون رجلا منا تلقى ستين الف فارس فما يجيبك أحد الى ذلك ، وإن أجابك رجل لما قلته فانه ظالم لنفسه معين على قتله .

خالد — بحدة — يا أبا سفيان كنت شجاعاً في الجاهلية فلا تكن جباناً في الاسلام ، وانظر لمن انتخب من رجال المسلمين وأبطال الموحدين فانك اذا رأيتهم علمت انهم رجال قد وهبوا أنفسهم لله عز وجل ، وما يريدون بقتالهم غير الله ، ومن علم الله ذلك من ضميره كان حقاً عليه أن ينصره ولو سلك مغظمات النيران .

بعض الحاضرين — يتحمسون ويصدقون .

ابو سفيان — يا أبا سليمان الأمر كما ذكرت وما أردت بقولي هذا الا شفقة على المسلمين ، فاذ قد صح عزمك الى ذلك فاجعل القوم ستين رجلا ليقاتل الرجل منهم الف فارس من العرب المتنصرة .

خالد — يعرض عنه ويلتفت الى الباقين يقول — وانتم ماذا تقولون.

هاشم وجماعة — افعل ما بدا لك .

أبو عبيدة — نعم ما أشار به أبو سفيان .

خالد — الى أبي عبيدة — والله أيها الأمير ما أردت بفعلي هذا إلا مكيدة لعدونا لأنهم إذا رجعوا الى أصحابهم منهزمين بقوة الله يقولون لقينا ثلاثين رجلا ، فيداخلهم الرعب منا ويعلم ماهان أن جيشنا كفؤ له .

أبو عبيدة — الأمر كما ذكرت إلا انه اذا كان ستون رجلا منا يكونون عصبة ومعيناً بعضهم بعضا .

خالد — لكم ذلك ، ولكن أنا انتدب من المسلمين رجالا اعرف صبرهم وقرارهم واقدامهم في الحرب واعرض عليهم ذلك فان احبوا لقاء الله ورغبوا فى ثوابه فانهم يستجيبون الى ذلك ، وان احبوا الحياة الدنيا والبقاء فيها ، ولم يكن من تطيب نفسه للموت ، فما على خالد الا ان يبذل مهجته فى سبيل مايحب الله ويرضاه ثم تقدم الي المسلمين وبرز امام الجيش واخذ ينادي بصوته الجهير ، اين حذيفة بن اليمان .

حذيفة — لبيك لبيك

خالد — اين مالك بن الحارث

مالك — لبيك لبيك

خالد — اين هاشم بن عتبة المرقال

هاشم — مبادرا — لبيك لبيك

وهكذا اخذ ينادي اين قيس بن سعد بن عبادة واين ضرار بن الأزور الكندي ، واين فلان وفلان وجعل ينتدب الابطال بأسمائهم حتى تكاملوا عنده ستين بطلا ووقفوا بأزائه متحمسين للجهاد ، كلهم تضحية فى سبيل الاسلام فلما رأى ذلك خالد سر كثيراً وأخذ يخاطبهم ويقول ، ماتقولون يا انصار الله في الحملة معي على هذا الجيش الذي قد اتى يريد حربكم وقتالكم ، فان كان لكم صبر وايدكم الله بنصره مع صبركم ، وهزمتم هؤلاء العرب المتنصرة ، فاعلموا انكم لجيش الروم غالبون ، فاجابه الجميع بلهجة واحدة

ملؤها بطولة وايمان يقولون ، افعل بنا ماتريد ، والق من تشاء ، فوالله لنقاتلن اعداء الله قتال من ينصر دينه ويتوكل عليه ويبذل مهجته في سبيله ، فشكرهم أبو عبيدة شكراً كله تقدير واعجاب واثنى عليهم خالد احسن الثناء ثم قال لهم ، فتأهبوا رحمكم الله ، وخذوا اسلحتكم وعدتكم ، وليكن قتالكم بالسيف ، ولا يأخذ احد منكم رمحا ، فان الرمح خوّان ربما زاغ عن الطعن ، ولا تأخذوا السهام ، فانها منايا منها المخطيء ومنها المصيب ، والسيف والجحف عليها تدور دوائر الحرب ، واركبوا خيولكم السبّق النواجي ، ولا يركب الرجل منكم الا جواده الذي يصبر عليه ، وتواعدوا ان الملتقى عند قبر المصطفى

ومن ذا يسمع بمثل هذه الكلمات التي تحيل البطل المجاهد الى كانون من حماس وشعلة من تضحية ثم لا يعجل في التهيؤ ويسرع في الاستعداد فما اسرع ما بكر صاحبنا هاشم واخوانه المغاوير في اليوم الثاني متهيئين مستعدين تكاد تتزلزل الارض تحت اقدامهم شوقاً الى الحرب ورغبة في الجهاد ثم ساروا الى جبلة حتى وقفوا امامه يريدون القتال ، فلما نظر جبلة الى قلتهم ظنهم رسل المسلمين . اقبلوا عليه يلتمسون منه الصلح فصاح فيهم في زهو وكبرياء يقول ، ارجعوا الى قومكم فانا لا نريد الا الحرب والقتال فهز بطلنا هاشم وجماعته سيوفهم في وجهه وافهموه انهم لا يريدون كذلك الا القتال فعندها غضب جبلة من جرأتهم واقدامهم وصعق باصحابه يأمرهم بالهجوم فحملوا حملة واحدة شديدة والتحم القتال حتى علا ضرامه والتهب ، فلم يبق احد من المسلمين والمشركين الا واعتقد ان هؤلاء الستين

بطلا ذهبوا طعمة سائغة لهذه النيران ، حتى بكى عليهم أبو عبيدة وجميع المسلمين واطلقوا لانفسهم عنان البكاء .

وارتفعت الشمس في الفضاء والقتال لايزال يدور بين القوم ، ثم زالت واتجهت نحو الغروب واصوات صليل السيوف ترتفع من جانب الميدان فعندها نفد صبر المسلمين فاقبلوا على أبي عبيدة يتلاومون ويصرون عليه بأن يرخصهم في الهجوم لخلاص اصحاب رسول الله ، وبينما كان يهم المسلمون بالتحرك ارتفعت الاصوات بالضجيج حتى ارتجت معها ساحة المعركة ، ثم انكشف العرب المتنصرة وفروا على وجوههم منهزمين ، واقبل خالد ومعه ثلة قليلة من اصحاب رسول الله وقد براهم التعب وهدهم القتال فاستقبلهم المسلمون في موجة من السرور والابتهاج .

ولم يكد يستقر بخالد المكان حتى نظر الى اصحابه الذين خرجوا معه فلم يجد منهم الا عشرين فارساً فحسب ، ولم ير بينهم صفوة الابطال كالمرقال والاشتر وقيس بن سعد واضرابهم فجعل يلطم على وجهه ويخاطب نفسه ويصيح اهلكت المسلمين يا بن الوليد ، فما عذرك غداً عند الرحمن وعند الخليفة عمر بن الخطاب ، فتراكض نحوه المسلمون مجتمعين عليه واقبل عليه أبو عبيدة بالحديث يسليه ويخفف عنه ويقول ، يا أبا سليمان ، الحمد لله على نصر المسلمين ، ودمار المشركين فاجابه خالد والاسى ملؤ لهجته والدموع تسيل من عينيه يقول ، ايها الأمير ان الله قد هزم الجيش ، ولكن اعقبتك الفرحة ترحة ، قال أبو عبيدة ، وكيف ذلك ، قال ايها الأمير فقدت أربعين من اصحاب رسول الله ثم شرق بالدموع ولم يستطع

من أتمام الحديث ، فتقطعت نفوس المسلمين اسى وحسرة والتفت سلامة ابن الاحوص الى أبي عبيدة يقول ، ايها الأمير ، دونك المعركة فاطلب فيها اصحاب رسول الله ، فان رأيتهم والا فالقوم اسرى أو قد تبعوا المشركين ، فهرع المسلمون يتراكضون الى مكان المعركة فلم يجدوا منهم سوى عشرة شهداء فسارتلة من المسلمين يتتبعون المشركين يبحثون عن هاشم ومن معه ، فلم يسيروا الا قليلاحتى التقوا ببطلنا المرقال امام اخوانه عائداً اليهم فاستبشروا به وعانقوه بحرارة ولهفة وسئلوه عن سبب غيابه فاجابهم يقول ، ان رجالاً منا اسروا فتبعنا آثار المنهزمين رجاء أن نخلصهم فلم نظفر بهم ، ولاشك انهم قدقتلوا ، ثم اقبل معهم الى أبي عبيدة يسير بين المسلمين في حفل من المسرات والابتهاج (١)

---

(١) لعلنا جميعاً نستغرب حينما نطالع لأول مرة مايحدثنا الرواة به عما ابداه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فتوح الشام من البطولة والتضحية ، ولعل بعضنا يخرجه هذا الاستغراب الى حد يحمله يعتقد بخرافة هذه الاخبار ووضعها ونحن في الوقت الذي نشارك الجميع في هذا الاستغراب لانجد مانعا عقلياً او عادياً يمنعنا من تصديق بعض هذه الروايات لأن للعقيدة فعلها الجبار في الحرب واثرها البليغ عند القتال ، والا لزم ان نكذب جميع ما حدثنا به الرواة عن فتوح الشام والعراق ولو بلغ حديثهم الى حد التواتر والاجماع لان المسلمين كانوا في جميع تلك الفتوح من القلة بحيث يفضلهم اعدائهم بالآف المرات .

على جحفل المشاة

- ٩ -

وانتهت فلول العرب المتنصرة بالهزيمة الى قائدالملك هرقل (ماهان) فعرضوا عليه الخمسة الاسارى من اصحاب رسول الله واخبروه بما نالهم منهم ومن اصحابهم من المحنة والشدة عند القتال ، فاحولت عينا ماهان من الغضب وأقسم بمايدين به على الاحتيال فى جلب بقية اخوانهم وقتلهم جميعاً ثم بعث في الوقت رسوله عليهم الى المسلمين يدعوهم بالقدوم عليه بحجة التشاور معهم في حقن الدماء ونشر السلام

ويدرك المسلمون مابيّت ماهان من الخيانة والغدر لهؤلاء فيشفقوا على المرقال واخوانه من المسير اليه ، ويلحوا عليهم فى المكث والبقاء ، ولكن للبطولة اذن صماء لايداعبها الخوف ولم يتسرب اليها الارتياب فيتوجه هاشم واخوانه الى ماهان ، ويخرقون عليه حجابه يعرضون عليه الواناً من الاعتداد والعزة وعدم المبالاة بكل ماجمّع حوله من الجنود ، فيستحيل ماهان الى أتون من نار اخذت تغلي فيه مراجل حقده وتستعر نفسه ملتهبة بالثأر والانتقام .

ويبدأ ماهان اول مايبدأ معهم الحديث بالتهديد والتوعيد فيحذرهم من الحرب ويخوفهم بحسن عدة جيشه وكثرة الجنود والانصار ولما لم يجد منهم الا السخرية والاستهزاء هاج من الغضب ثائراً يأمر باحضار الاسارى ليقتلهم ويمثل فيهم ماشاءله هواه ، وهنا يثور به هاشم واصحابه

تلمع البوارق فى اكفهم يحوطون به ويأخذون عليه سبل الحياة ، فتضاحك ماهان مداوراً يتذرع باللطف واللين فى النجاة ، ثم غصب شفتيه على ابتسامة باهتة والتفت اليهم يقول ، مهلا ، مهلا ، فما اردت الا المزاح وصاح باصحابه يأمرهم باطلاق الاسارى وفكاك الاغلال من ايديهم ، ثم قال لأصحاب رسول الله — ارجعوا الى معسكركم وقومكم واعزموا على القتال ، وخذوا اساراكم معكم فلن تعجزونا جميعاً في الحرب ، فسار هاشم ومعـــه اصحابه جميعاً وانجهوا صوب المسلمين ينذرونهم بالحرب ويقصون عليهم ماقال ماهان .

ولم يكد ينتشر النور فى الفضاء فى اليوم الثاني حتى زحف اليهم الروم وعاجلوهم في القتال ، فهرع المسلمون الى صفوفهم وفزع أبو عبيدة لخالد حائراً يستشيره عن رجل قـــدير يتولى قيادة جحفل المشاة ويوجه الرجالة حسبما تقتضيه مصلحة الحال فأجابه خالد بلهجة الواثق المطمأن يقول : سأولي على الرجالة رجلا لا يؤتى المسلمون من قبله ، ثم أخـــذ يتخطى الرقاب ويتخلل الجيش حتى وقف على هاشم وأخـــذ بيده متلطفاً يقول : « انزل ياهاشم وكن على الرجالة رحمك الله » وجيش الرجالة حينذاك وفي جميع الأوقات اساس الحرب ، ومدار القتال ، وعليهم تعقد الآمال في ساحات النضال ، اذ هم سبل الفتح وابواب النصر ، وعلى مقدارهم يكون الرجاء ، ومن هنا نعلم مايجب أن يكون عليه قائدهم من الحنكة والخبرة والبطولة وباقى الصفات العسكرية مايستطيع به أن يوجههم نحو الظفر ويقودهم به الى حيث الفتح والانتصار ، وقد وفق خالد كثيراً في هذا

الاختيار ، وربما كان انتصار جحفل المسلمين المشاة فى ساحة اليرموك واكثر ماغنمه المسلمون فى تلكم الوقعة من بركات صاحبنا هاشم ومن ثمرة هذا الاختيار .

ويتقدم هاشم امام جحفله يرقل ويقاتل ، ويقاتل ويرقل والجيش من ورائه يتقدم بحماس حتى قرب من سرادقات ماهان وكان حوله من الروم مثل الجبال ، فاضطرب ماهان ونزل عن سريره هاربا يصيح بالروم ويعنفهم ويأمرهم بالدفاع ، فتكاثر الروم على هاشم واصحابه واحاطوا به من كل مكان ، فلم يزل يضربهم بسيفه ويفرقهم عنه الى أن اقبل الليل وفصل بينه وبينهم الظلام .

وهكذا أخذ يقاتلهم مرة بعد اخرى ويزحف اليهم بجحفله فى كل يوم حتى جبنهم وأشاع فى نفوسهم الوجل والارتياب واقاموا فى معسكرهم سبعة ايام محتجبين لايبدؤن بزحف ، ولم يخرجوا للقتال ، فلما رأى ذلك ماهان فتّ في عضده وجمع رؤساء جيشه فهددهم ورغبهم وأخذ يحثهم على الحرب بما وسعه من الوسائل وقام معهم يدور فى جيشه يشجعهم ويفرغ فيهم الوان الوطنية والحماس ، حتى استعادوا نشاطهم ودبوا في فجر اليوم الثامن مبكرين وهجموا على المسلمين بغتة فأزالوهم عن مواقفهم واشاعوا فى صفوفهم القتل والجراح .

وتصايح المسلمون من هنا وهناك يندبون الابطال ، ويستجيرون بالقادة والزعماء فتطاير اليهم نخبة من ابطال المسلمين وانقضوا على الروم كالصاعقة يلهبونهم بالسيوف وبطلنا المرقال في اوساطهم يهدر كالفحل

يصول ويجول حتى انكشف الروم وانسحبوا الى اصحاب السلاسل تميد الارض تحت اقدامهم من شدة الوجل والاضطراب .

وكان الروم قد حفروا الخنادق خلف صفوفهم وجعلوا فيها ثلاثين الف بطل مشهور قد شدوا أرجلهم بالسلاسل مقترنين بعضهم ببعض متعاقدين على الثبات متحالفين على الدفاع حتى الموت بيدهم السيوف والرماح متجلببين بالزرد والدروع كانهم جبل من حديد ، فلما رأوا اصحابهم منهزمين قاموا في وجوههم يصيحون ويصعقون بهم على الرجوع حتى رجعوا الى المسلمين وتصادموا بهاشم واصحابه صدمة قوية تطاير منها الشرر حتى احال الميدان شعلة من نار الى أن كلّ الطرفان من القتال وتحاجزوا اعياءً وتعباً .

ويخرج بطل من جانب الروم بعد ايام فيوقد نار الحرب من جديد ويتقدم الى ساحة المعركة يطلب البراز فيجيبه احد المسلمين بسيفه فيتركه موزع الاشلاء ، ويبرز آخر منهم مدلا بشجاعته يتحدى الابطال فيبرز اليه آخر من المسلمين يشيعه الى حتفه فيغضب الروم غضباً شديداً ويسددوا سهامهم نحو المسلمين ويرشقونهم بالنبل عن يد واحدة افرغوا فيها كل مافي نفوسهم من الم وغيض فيخر هاشم صريعاً تسيل من عينه الدماء ويخرّ حوله ابطال المسلمين مصابين في اعينهم حتى شاع في الناس الجراح واعور منهم سبعمائة قائد وزعيم فسمي ذلك اليوم بيوم التعوير .

ولكنّ للجهاد في نفوس المؤمنين الابطال لذة خاصة وعزماً حديديا لاتفله الآلام او تحدّ من قوته الجروح فما هي الا ريثما أن شدّ هاشم عينه

حتى وثب كالأسد المخدوش وهجم على الروم مع المسلمين هجوماً لم يرجع معه الا مكللا بالنصر مثقلا اصحابه بالغنائم والاسلاب .

واستراح مع الجيش قليلا فى اليرموك ثم استعاد كفاحه وتوجه مع أبي عبيدة يتبع فلول الروم المنهزمة حتى بلغ دمشق واحاط بها يشدد على اهلها الحصار الى أن أضجرهم كثيراً فانقادوا صاغرين واستسلموا لما يفرضه عليهم أبو عبيدة من الجزية ؟

الى القادسية

— ١٠ —

وتسلم أبو عبيدة كتاب الخليفة عمر يأمره فيه بأن يبعث بطلنـــا المرقال الى القادسية لمؤازرة سعد ابن أبي وقاص فى قتال الفرس ، فخرج هاشم على رأس عشرة آلاف فارس صنديد ، وقدم امامه القعقاع بن عمرو طليعة له وسار بعده متجها الى القادسية مستعجلا يحث اصحابه فى المسير

وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد بعث سعداً الى القادسية فصدمه الفرس صدمة قوية وتكاثروا عليه حتى اخذوا عليه جميع مسالك النجاة فلما قرب هاشم من القادسية وعلم ذلك ارسل مقدمته يبشر اصحاب سعد بالنجدة ثم وزع جنوده كتلاً كتلاً ، وسبعين سبعين فارساً وأمر كلّ كتلة أن تسير بعد اختها بساعة ، وبادر هو بالكتلة الاولى حتى اذا بلغ القادسية وخالط المسلمين كبر تكبيرة عالية ردّدها بعده جميع الجيش ذات دويّ صخاب زلزلت بالفرس اقدامهم وشحنت نفوسهم بالفزع والاضطراب ، وهكذا اخذت تتتابع الكتل بالقدوم ويتلو بعضها بعضاً ويضج المسلمون بالتكبير مرة بعد أخرى وكلما طلعت عليهم كتلة من اصحاب هاشم ، ولم تكد تستقر بين المسلمين آخر تلكم الكتل الكثيرة المتتابعة حتى وثق المسلمون بالنصر واندفع الجميع بحماس يحيطون بهاشم يتلاقفون أوامره متحفزين للهجوم ، فتقدم امامهم هاشم يحمل قوسه بيده والتفت اليهم بلهجته العسكرية يقول ، اول القتال المطاردة ثم المرامات ، ثم وضع

سهما في كبد القوس ونظر يسدده الى الفرس والجميع ينظرون اليه ولكنه لم يكد يرسله من يده حتى وثبت به فرسه ورفعت رأسها من الجموح فوقع السهم فى اذنها ، وهناتتجلى لنا ناحية جديدة في بطلنا المرقال يبدو بها عبقرياً لبقاً يملك من سرعة الخاطر وحضور البديهة وقوة الذهن مايستطيع به أن يتلافى الموقف ويحيله الى طاقة فروراداة للبطولة والاقدام، في هذه الفترة المربكة التي تعقب الفشل عادة وتسد على الاذكياء مسالك التفكير يلتفت هاشم الى الجيش ويستقبلهم بوجهـــه ضاحكا يقول :

— واسوأتاه من رمية رجل كل من رآه ينتظره ، قبح الله هـذه ،

— يشيرالى الفـرس — أين ترون سهمي كان بالغا ولم يصب اذن الفرس —

فيبالغ الحاضرون في التقدير ، ويجيبونه بما يتناسب وشأن امثاله من عظماء القادة والزعماء قائلين ، نراه كان يبلغ نهر العتيق ، فينزل عن فرسه ويأخذ سيفه بيده ويتوجه الى جيش الفرس راقلا يضربهم بسيفه حتى بلغ العتيق ثم انكفأ راجعاً يسوقهم امامه هكذا كالاغنام يعود الى مكانه الاول بين المسلمين في موجة من الاعجاب والتقدير .

ويستعد المسلمون للقتـــال فيسير أمامهم هاشم الى ساحة الحرب ويلتحم مع الفرس في معركة عنيفة جداً استمرت طيلة النهار وأخذت من الليل أكثره ، حتى أكلت أبطال الفريقين واشاعت القتل والجراح في الناس ، وأصبح الجميع في اليوم الثاني متحاجزين قد اشتغل كل فريق بدفن قتلاه ومداواة الجرحى من عسكره فكان المسلمون اذا حملوا الجريح ومروا به على نخلة قائمة وحدها بين القادسية والعذيب ليطرحوه في معسكره

سألهم أن يريحوه برهة بظلها من حرارة الشمس والجراح فاتفق أن مروا عليها برجل من طي فاستوقفهم برهة عندها وأخذ يقول :

ألا فاسلمي يا نخـــلة بين قادس * وبين العذيب لا يجاورك النخلُ

وأنشأ جريح آخر من ضبة تحت ظلها يقول :

ألا فاسلمي يا نخلة بين جرعة * يجاروك الجمّان دونك والرغلُ

وثالث من بني تيم الله يقول :

أيا نخلة الجرعاء يا جرعة العـدى * سقتك الغوادي والغيوث الهواطلُ

ومروا بالأعور بن قطبة فأنشأ يقول :

أيا نخلة الركبان لا زلت فانظري * ولا زال في اكناف جرعائك النخلُ

وبعوف بن مالك التميمي فقال :

أيا نخلة دون العذيب بتلعة * سقتك الغوادي المدجنات من النخلِ

وهكذا انتهى أكثر ذلك اليوم على المسلمين والفرس جميعـاً وهم بين الأنّات والآهات مشغولون بالدفن والمداواة ، فلما أن مالت الشمس جزعا تركض نحو الغروب زحف الفرس الى المسلمين وأمامهم الفيلة تخبط كل من تلقـــاه فزحف اليهم المسلمون يستقبلونهم بالسيوف والحراب ، ودنا بعضهم من بعض ، ثم التقيا وتقاتلا واشتد القتال وسعد في قصره محتجباً بجدرانه لم يشهد القتال حتى اشتد الحال بالمسلمين وضويقوا كثيراً فثارت النخوة في نفس أبي محجن — وكان محبوساً في قصر سـعد — فأخذ يرفع صوته ويقول :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا * واترك مشدوداً عليّ وثاقيـــا

إذا قمت عنّاني الحديد واغلقت مصاريع دوني قد تصمّ المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركوني واحداً لا أخاً ليا
ولله عهد لا أخيس بعهـــده لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فرقت له سلمى زوجة سعد وأطلقته فبادر الى الميدان يلعب برمحه ثم هجم على الفرس فقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنـة ثم رجع من خلف المسلمين الى القلب في عسكر الفرس وأخذ يقاتلهم قتالا شديداً حتى تعجب المسلمون جميعاً من فعله واعتقدوا انه صاحبنا هـاشم المرقال لأنهم لم يعرفوا بطلا غيره بهذه البطوله والاقـدام ثم رجع الى مكانه في القصر واعاد الحديد برجليه ورفع عقيرته يتغنى ويقول :

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعاً سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفـــدهم في كل يوم فان عميوا فسل بهم عريفـا
وليـلة قادس لم يشعروا بي ولم أشعر بمخرجي الزحوفا
فان احبس فذلكم بلائي وإن اترك اذيقهم الحتوفا

ولم يزل القتال يدور هكذا طول الليل وبطلنا المرقال في الأوساط يدير دفة الحرب حتى الصباح والناس سكوت قـد استبدلوا لضعفهم من شدة الجلاد بالهرير عن الكلام الى أن وهنوا واستكانوا قليلا وكاد المسلمون يلتجؤن الى الفرار لولا أن هاشماً ندب معه جماعة من الأبطال وراح يدور بينهم يتخلل الصفوف والرايات يشجعهم ويحرضهم على الجهاد ويبشرهم عن لسان النبي بالنصر ويقول : أيها الناس — سمعت رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم يقول : يظهر المسلمون على جزيرة العرب وعلى فارس والروم وعلى الأعور الدجال — فالى الجهاد الى الجهاد فقد صدق رسول الله ، ثم حمل على الفرس حملة شديدة فيمن نشط معه من المسلمين وما هي إلا برهة أيده الله صدفة بعاصفة شديدة هوجاء أخذت تهب في وجوه الفرس وتستقبلهم بما تحمله من التراب حتى قلعت سرير قائدهم الكبير رستم والقته في نهر العتيق ثم شوشت صفوفهم والسيف يأخذهم من كل مكان فتمزقوا شر ممزق وفروا على وجوههم منهزمين ؟

الى المدائن

— ١١ —

وأقام هاشم فى القادسية بعد الفتح شهرين مع سعد بن أبى وقاص ثم تهيأ للمسير الى المدائن بأمر الخليفة عمر يتعقب الفرس ويتبع فلولهم المجتمعة هناك ، وقبل أن يتحرك الجيش من مكانه وقف سعد بين الجموع وأخذ يثني على صاحبنا المرقال ويشيد بحنكته وبطولته وكفاحه المجيد في قتال الفرس ثم دعا بهاشم وأنابه عنه انابة مطلقة في جميع أفعاله وأقواله ، ثم دعا بزهرة بن الحوية ووجهه فى مقدمته الى ـ اللسان ـ (١) واتبعه بهاشم في كتيبة الأبطال وتحرك هو من بعدهم يقفو أثرهم فى بقية المسلمين . .

وانتهى زهرة بالمقدمة الى ـ برس ـ (٢) فوجد بها الزعيم ـ بُصبهرى ـ فى جماعة من الفرس فناوشه القتال ساعة انهزم الفرس على اثرها ، وجاءه رئيس برس منقاداً يصالحه على ما يريد ثم عقد له المعابر والجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل لحربه . .

---

(١) اللسان على ما ذكره الحموي في معجم البلدان . . البر الذي أدلعه في الريف عليه الكوفة اليوم ، والحيرة قبل هذا ، ويقال لظهر الكوفة اللسان وهو فيما بين النهرين الى العين عين بني الجراء ، وكانت العرب تقول دلع البر لسانه في الريف ، فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط ، وما كان يلي البطن منه فهو النجاف .

(٢) برس : بالضم : موضع بأرض بابل به آثار لبخت نصر ، وتل مفرط العلو يسمي صرح برس .

وكانت اشتات الفرس قد اجتمعت ببابل بعد هزيمتهم الشنيعة من القادسية فتحالفوا على قتال المسلمين وتعاقدوا على حربهم ، وأمروا عليهم القائد ـ الفيرزان ـ فتريث زهرة في المقدمة بمدينة برس ينتظر قدوم هاشم عليه ليستطلع رأيه ويأخذ منه الأمر في المسير او البقاء ، فلما قدم هاشم عليه أمره أن يسير الى بابل ويواقف الفرس هناك ريثما يلتحق به ويقدم عليه ، فسار زهرة ونزل في ضواحي بابل وأسرع اليه هاشم بكتيبته وتقدم نحو المدينة من ساعته فقاتل الفرس فيها قتالا شديداً حتى أخرجهم هائمين من البلاد ، ثم تقدم بجميع الجيش فعبر ـ الصراة ـ (١) ودخل ـ سورا ـ (٢) ثم جاوزها يقاتل ويتقدم حتى دخل ـ كوثي ـ (٣) فاستراح فيها قليلا ينتظر سعداً وسار معه في طريقه الى الفتح والجهاد . .

---

(١) الصراة : بالفتح : نهر يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسخ .

(٢) سورا : بضم أوله وسكون ثانيه ثم الراء وألف مقصورة على وزن بشرى : موضع بالعراق من أرض بابل وهي مدينة السريانيين ، ينسب اليها الخمر الجيد ، قال ابو جفنه القرشي :

وفتى يدير علي من طرف له * خمراً تولد في العظام فتورا
ما زلت أشربها وأسقي صاحبي * حتى رأيت لسانه مكسورا
مما تخيرت التجار ببابل * او ما تعتقه اليهود بسورا

(٣) كوثي : بالضم ثم السكون والثاء المثلثة والف مقصورة : قال نصر : كوث الزرع تكويثاً اذا صار اربع ورقات او خمس ورقات . كوثي اسم لثلاثة مواضع بسواد العراق في أرض بابل وهو الذي نقصده في هذا التوضيح ، وموضع في مكة وهو منزل بني عبدالدار خاصة ، وفي هذا الموضع يقول الشاعر :

لعن الله منزلا بطن كوثي * ورماه بالفقر والاعسار
لست كوثي العراق أعني ولكن * كوثة الدار دار عبد الدار

ولم يكد يبتعد الجميع عن كوثى حتى أقبلت عليهم كتيبة فارسية عظيمة تقودها ابنة الملك ـ بوران ـ ومعها المقرّط ، الأسد العنيف الجبار الذي أعده كسرى للشدائد ودربه على فنون القتال بحيث كان معقد آمال كسرى في الحروب وباب الظفر والانتصار ، وتقدمت هذه الكتيبة الى المسلمين وأمامها المقرّط عابساً يزلزل الأرض بمشيته فتراجع المسلمون الى الوراء يلوذ بعضهم ببعض حتى اضطربت صفوفهم وبان عليهم الوجل والخذلان فلما رأى ذلك هاشم تقدم الى الأسد مختالا يميس بمشيته من الاعتداد ثم دنا منه وجرّد سيفه بيده وعاجله بضربة على رأسه تركه يتشحط بدمه مفلوق الهام ، وحمل على الكتيبة يسوقها بسيفه حتى انهزمت متشتتة تسابق الرياح ، تاركة ورائها كل ما كانت تحمله من عـدة ومتاع ، وانكفأ راجعاً الى المسلمين حتى أخذ موقفه الأول بينهم كأنه لم يكن منه ما كان ، فتواثب المسلمون عليه يتفرسون في وجهه يقرؤن فيه باعجاب آيات البطولة والثبات ، وهرع اليه سعد يعانقه بلهفة وشوق ثم طبع على جبينه قبلة عسكرية تحمل في طياتها كل معاني التقدير وتسمو على الف وسام ووسام ، ومن ذلك اليوم سمي سيف بطلنا المرقال ـ بالمنن ـ لكثرة ما منّ على المسلمين في ساحات الوغى والجهاد .

ويتعجّل هاشم بكتيبته فيسبق سعداً بالمسير وينزل ـ مظلم ساباط ـ وهو يتلو قوله تعالى : « اولم تكونوا اقسمتم من قبل مالكم من زوال » وذلك ان الفرس كانوا لغرورهم بقوتهم يقسمون في كل يوم بأن ملكهم لا يزول ولن يزول مادام وا ، ثم تحرك بحث السير حتى نزل في ضواحي مدينة

ـ بهرسير ـ (١) فعاجلته حامية المدينة بالقتال واستقبلته بأسنّة الرماح تمنعه من المدينة ، وتقدمت اليه بجند كثير جبّـــار يركض امامه قائدها ـ فيروز ـ حتى وقف امام هاشم وأخذ ينادي بالفارسية متحديا زعماء المسلمين ويقول مامعناه ـ ياهؤلاء العرب لقد أطمعتم انفسكم فيما لاتصلون اليه ، وقد ساءت ظنونكم ، أزعمتم انكم تملكون العراق وتأخذونه من أيدي الأكاسرة ، هذا لا يكون ابداً ، ونحن كتيبة كسرى اولوا الشدة والبأس والقوة ، وأنا مقدمهم والرئيس فيهم فليبرز الي مقدمكم ويتقدم ـ وقبل أن يختتم فيروز حديثه وثب اليه هاشم مثل السهم يجر قناته من ورائه ثم قرعه بها يقطع عليه الكلام فوثب عليه فيروز يعانقه ويصارعه ، فتجاولا وتصاولا مليّاً ، ثم طعنه هاشم برمحه طعنة نجلاء اطلع السنان بها من ظهره وحمل على الفرس وحملت معه كتيبته والتحم الجيشان فاقتتلا أشد القتال وأعنفه أباد المسلمون فيه اكثر تلك الجنود والجئوا الباقي على الانسحاب ، فانسحبوا الى مدينتهم متحصنين وراء الخنادق والأسوار وتبعهم هاشم الى خنادقهم وظل ثابتاً هناك مع اصحابه مدة طويلة تزيد على الشهرين يناوشهم القتال مرة بعد أخرى وآناً بعد آن حتى نفدت مؤنة الفرس وأكلوا الكلاب والسنانير من الجوع وتسللوا من

---

(١) بهرسير : بالفتح ثم الضم وفتح الراء وكسر السين المهملة وياء ساكنة : من نواحي سواد بغداد قرب المدائن : قال حمزة : بهرسير احدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن : وهي معربة من دهاردشير ، وقيل هي معربة من . به اردشير ، ومعناها خير مدينة اردشير .

المدينة ضجراً منهزمين الى المدائن قليلا قليلا وخلت منهم البلاد .

ولما دخل المسلمون مدينة ـ بهرسير ـ وجدوا الفرس قد أغرقوا المعابر والسفن وقطعوا الجسر بعد أن عبروا عليه الى الجانب الآخر من النهر وأعجزوا المسلمين عن العبور ، فأقام هاشم فى المدينة أياما يفكر في العبور حتى جاءه علج من أهل المدائن فدلّه على مكان فى النهر قليل العمق صالحاً للعبور ، فاقتحم المسلمون النهر على خيولهم وعبروه جميعاً سالمين ، ثم تسابقوا الى المدائن يقاتلون حاميتها ويتقدمون حتى انهزم الملك يزدجرد بأهله وخاصته وأمواله وتفرق بعده اصحابه هاربين فدخلها هاشم أمام المسلمين وأخذ يتمشى فى القصر الأبيض قصر الملك الخاص وهو يردد قوله تعالى ـ اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير ؟

الى جلولاء

— ١٢ —

وبينما كان بطلنا المرقال رابضاً في المدائن مع سعد ابن أبي وقاص أخبر بأنّ الملك كسرى يزدجرد بن شهريار قد استعد لحرب المسلمين وحشد الرجال والسلاح من القرى والبلدان التي مرّ عليها واوقفهم في جلولاء (١) تحت قيادة قائده المشهور (مهران) وأقام هو بأهله وخاصته في حلوان (٢) يمدهم بالخيل والرجال . فلما سمع ذلك سعد اضطرب كثيراً (وكان رجلا ضعيف القلب ، متخاذل الاعصاب كثير الهواجس والأوهام) فكتب الى الخليفة عمر يخبره بذلك ، ويقرأ الخليفة هذا الكتاب فيشرف منه على قلق سعد واضطرابه النفسي ثم يكتب اليه يأمره بأن يتخلّف هو في

(١) جلولاء : بلد طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان بينها وبين خانقين سبعة فراسخ . وهو نهر عظيم يمتد الى بعقوبا ويجري بين منازل أهلها يحمل السفن الى باجسرا وفيها يقول القعقاع :

ونحن قتلنا في جلولا أثابراً * ومهران اذ عزت عليه المذاهب
ويوم جلولاء الوقيعة أفنيت * بنو فارس لما حوتها الكتائب

(٢) حلوان : بالضم ثم السكون اسم لعدة مواضع . والتي نريدها هنا بلدة في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد : قيل انها سميت بحلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة كان بعض الملوك أقطعه اياها فسميت باسمه وفيها يقول القعقاع ابن عمرو التميمي :

وهل تذكرون اذ نزلنا وأنتم * منازل كسرى والامور حوائل
فصرنا لكم رداً بحلوان بعدما * نزلنا جميعاً والجميع نوازل
فنحن الألى فزنا بحلوان بعدما * أرنت على كسري الاما والحلائل

المدائن ويبعث البطل القوي القلب المرقال فى وجوه الأبطال الى جلولاء لقتال جيوش يزدجرد هناك ، فيسير هاشم في اثنى عشر الف فارس من خيرة الفرسان ويتوجه الى جلولاء . .

ولما كاد هاشم يشرف بكتيبته على ضواحي جلولاء اصطدم بكتيبة فارسية ضخمة قوية لابنة الملك يزدجرد شاهران وقد جلست في محفة ذهبية مرصعة بالجواهر يكاد نورها يذهب بالابصار وأحاطها الجند مدججين في السلاح يتقدمهم قائدها ساقر بن هرمز يختال فى مشيته معتداً فى بطولته يتشدّق ويسير بكبر واستعلاء ، فتقدم اليه هاشم يصافحه بسيفه فيتركه مطروحا على الأرض يسبح فى غدير من الدماء ، ثم تقدم الى رجاله يصافحهم ثانياً فيتركهم مذعورين يركب بعضهم بعضاً من الهزيمة ثم أحاط بالمحفة وما حولها من الجواري والعبيد وارسلهم أسارى مع بعض جنده الى سعد واستأنف سيره متقدما الى جلولاء حتى عسكر امام معسكر مهران .

وكان مهران قد حفر الخنادق حول معسكره وبث فيها الوان الأخشاب الشائكة والحسك وترك في أحد جوانب الخندق طريقاً ضيقاً للخروج بحيث يتعذر على المسلمين الدنو والوصول اليه فلما رأى ذلك هاشم أخذ يطاولهم ويترقب فيهم الفرص ، ويناوشهم القتال حيناً بعد حين من وراء الخندق حتى أضجرهم وخرجوا اليه متدفقين والأمداد تتتابع عليهم متواصلة من حلوان يرسلها اليهم الملك يزدجرد ، فصف أصحابه هاشم وقام يدور فيهم يحرضهم على الجهاد ويشجعهم ويقول :

« ابلوا الله بلاء حسناً ، يتمّ لكم عليه الأجر والمغنم ، واعملوا لله فان هذا المنزل له ما بعده » وبمثل هذه الكلمات الصافية النقية التي تغسل القلوب من شوائب الطمع ، وتطهرها من أدران الدنيا ، وتوجّهها الى الله تعالى توجيهاً يتم لهم به على الله الأجر والمغنم ، ويخلص معه للمنزل الذي بعد هذا المنزل ، ويحيلهم الى مجاهدين احرار ، بمثل هذه الكلمات القصار التي جمع فيها بين الترغيب والترهيب وبين ثواب الجهاد وعقاب الفرار دفع بالمسلمين في وجوه الفرس يتقدمهم كالصاعقة وانقض عليهم يقاتلهم في معركة دامية عنيفة حتى غلبهم على الخندق ، ثم بكر عليهم في اليوم الثاني وقد التفوا بحسك الحديد يستميضون به عن الخندق وقدموا امامهم (خرزاد) اخو البطل الفارسي المشهور رستم فالتحم معهم يقاتلهم قتالا شديداً لم يجد معه الفرس بداً من الفرار فانهزموا تاركين ورائهم ابطالهم موزعي الأشلاء قد فرشوا الميدان وجلّلوه بالجثث حتى سميت هذه المعركة بمعركة جلولاء ، وتبعهم هاشم يتعقبهم وهو يرتجز ويقول :

يوم جلولاء ويوم رستم ويوم زحف الكوفة المقدّم
ويوم عرض النهر المحرم من بين أيّام خلون صرّم
شيّبن اصداغي فهن هرّم مثل ثغام البلد المحرّم

وهي أبيات تدلنا على بلائه العظيم في ساحات الجهاد ومدى ما لاقاه في جلولاء خاصة من الشدة والمحنة بحيث شيّبن اصداغه وتركنها هرّماً كما يقول ، وهكذا تبعهم يتعقبهم حتى طردهم عن جلولاء واحتل جميع ما في معسكرهم من الأموال وكانت جزيلة جداً بحيث كان المسلمون

يسمّون فتح جلولاء ـ لكثرة ما غنموه فيها ـ فتح الفتوح بلغت حصة الفارس الواحد في ذلك اليوم ثلاثون الف دينار على ما يذكره بعض الرواة غير السلاح والخيل وهو مبلغ جسيم جداً كان لا يطوف بخيال العربي حينذاك حتى في الحلم والمنام ، كل ذلك بفضل صاحبنا هاشم وبسداد رأيه وحنكته العسكرية ومن بركات سيفه المنن صاحب المنة المتكررة على المسلمين . .

ولما أتمّ هاشم فتح جلولاء أمر جرير بن عبدالله أن يقيم فيها فى كوكبة من الجيش وسرّح القعقاع بن عمرو فى الكتيبة الخرساء وأمره أن يسير فى آثار الفرس يتعقبهم فسار القعقاع الى خانقين وقاتل بهاجماعة من الفرس فهزمهم وبعث بالغنائم والسبايا الى هاشم ، ثم سار ودخل (قصر شيرين) وخرج منها يستمر فى تعقيب الفرس حتى اذا كان على رأس فرسخ من حلوان استقبله ـ خسرو شنوم ـ قائد الحرس الملكي الخاص الذي خلّفه يزدجرد فى حلوان فقاتله القعقاع أشد القتال حتى هزمه ودخل حلوان وأرسل الى هاشم يخبره بذلك ، فخرج هاشم المرقال من جلولاء في ثلة كبيرة من أصحابه يغير فى نواحى السواد من جانب دجلة فأغار على ـ مهروذ (١) ودخلها فصالحه رئيسها على جريب (٢)

(١) مهروذ : آخره ذال معجمة والواو ساكنة من طساسيج سواد بغداد بالجانب الشرقي من أستان شاذ قباذ : وهو نهر عليه قرى فى طريق خراسان .

(٢) الجريب : مكيال قدره اربعة أقفزة والقفيز ثمانية مكاكيك والمكوك صاع ونصف تقريباً او أزيد منه بقليل .

من الدراهم ، فتركه وأغار على الدسكرة (١) فقتل زعيمها واستولى عليها ثم اشرف على ـ البندنجين ـ واضطر أهلها على أداء الجزية والخراج ثم قفل راجعاً من هناك الى المدائن . .

ولما استراح اصحابه فيها قليلا خرج بهم يستعيد جهاده فمر بالراذانات (٢) وأشرف على « دقوقاء » (٣) وخانيجار (٤) فتغلب على ما فيهما ، وتقدم هكذا يتقدم ويقاتل ويفتح حتى فتح جميع كورة « باجرمى » وتغلغل الى « سن بارما » (٥) وبوازيج الملك (٦) الى أن انتهى الى شهرزور (٧) ورجع بالفتوح والغنائم الى المدائن ؟

(١) الدسكرة : بفتح أوله وسكون ثانيه : وفتح الكاف قرية كبيرة ذات منبر بنواحي نهر الملك من غربي بغداد .

(٢) الراذان : بعد الألف ذال معجمة وآخره نون . راذان الأعلى وراذان الأسفل كورتان بسواد بغداد تشتمل على قرى كثيرة يقول فيها عبيدالله بن الحر :

أقول لأصحابي باكناف جازر * وراذانها هل تأملون رجوعا

(٣) دقوقاء : بفتح أوله وضم ثانيه وبعد الواو قاف أخرى والف ممدودة ومقصورة مدينة بين أربل وبغداد .

«٤» خانيجار : بعد الألف نون ثم ياء مثناة من تحت وجيم وآخره راء : بليدة بين بغداد واربل قرب دقوقاء .

«٥» بارما : قرية في شرقي دجلة الموصل .

«٦» بوازيج : بعد الزاي ياء ساكنة وجيم : بلد قرب تكريت على فم الفرات الأسفل حيث يصب في دجلة . ويقال لها بوازيدج الملك .

«٧» شهروز : بالفتح ثم السكون وراء مفتوحة بعدها زاي وواو ساكنة وراء : كورة واسعة في الجبال بين أربل وهمذان احدثها زور بن الضحاك : ومعنى شهر بالفارسية المدينة وأهل هذه النواحي كلهم اكراد متجبرة متكبرة يخرجون دائماً على النظم والقوانين . قرأ بعض المتنطرفين قوله تعالى ـ « الاكراد أشد كفراً ونفاقا » فقيل ان الآية الأعراب أشد كفراً ونفاقا فقال ان الله عز وجل لم يسافر الى شهروز فينظر الى ما هنالك من البلايا المحباآت .

الى الكوفة

— ١٣ —

وبقي هاشم في المدائن حوالي السنة تقريباً حتى برم المسلمون بالمقام فيها وضجروا من كثرة الذباب والغبار فكتب سعد الى الخليفة عمر في ذلك فردّ عليه الخليفة بأمره بالانتقال منها الى مكان يوافق المسلمين ولا يكون بينهم وبين المدينة بحر ، فأرسل سعد حذيفة وسلمان رائدين ليختارا مكاناً كما أراده الخليفة في كتابه ، فسار حذيفة من المدائن متيامناً يطوف في الأرض ويجوب البلدان ، وسار سلمان متياسراً هكذا يتنقل حتى التقيا معاً في الكوفة فاتفقا على حسنها واستطابا فيها الهواء والماء ثم قفلا راجعين الى سعد يدلانه عليها ، فانتقل سعد بالمسلمين من المدائن وسار ومعه صاحبنا هاشم فنزل الكوفة وخطط فيها المنازل والاسواق واتخذها مقراً لمن معه من المسلمين ،

ومكث هاشم في الكوفة في ظل عقيدته متوجهاً الى ربه يتذاكر والصحابة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويعلم الناس مما علمه النبي ، وربما اشترك مع الصحابة في بعض الغزوات فأضاف للمسلمين منة اخرى تفيض عليهم بالخير والبركات ، وهكذا كان في الكوفة مقيماً بين أحاديث النبي وبين بعض الغزوات القصار الى أن شغب أهل الكوفة على سعد (١) وتابعوا كتبهم الى الخليفة يشكونه اليه ويتذمرون منه ،

«١» سعد ابن أبي وقاص : مالك بن أهيب أو وهيب بن عبد مناف بن زهرة : ـ

ويعددون له مثالبه ومساويه حتى اضطر الخليفة على تأنيب سعد مراراً ويعزله بالأخير عن الكوفة .

— وقد تقدم الكلام في الفصل الثاني من هذا الكتاب في نسبه ، أسلم بدعوة صديقه أبي بكر وعمره ١٧ سنة . ويقال انه من العشرة الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة . أرسله عمر الى القادسية ففتحها المسلمون ثم سار الى المدائن وبعث سراياه لفتح العراق وفارس فلما فتحت ولاه عمر على الكوفة فشكاه أهلها اليه وذكروه عنده بكل قبيح فارسل عمر محمد بن مسلمة الى الكوفة يتحقق الحال فدخل محمد الى الكوفة وجعل يطوف على القبائل ويسألهم عن سعد حتى انتهى الى بني عبس وأخذ يسألهم عن سعد ويقول : أنشد بالله رجلا يعلم حقاً الا قال ، فقام اسامة بن قتادة وقال : اللهم ان نشدتنا عن سعد فانه لايقسم بالسوية ، ولا يعدل في الرعية ، ولا يغزو في السرية ، فرجع محمد الى عمر فأخبره بذلك فاستدعاه عمر اليه وعزله عن الكوفة ، وكان الناس في زمانه يتحدثون عنه ويرمونه بالجبن خصوصاً في يوم القادسية حتى نظموا القصائد في ذلك وارتجزوا بالاشعار .

يقول أحد الشعراء فيه :

ألم تر ان الله أنزل نصره ... وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيم

ويقول بشر بن ربيعة يعرض به :

ألم خيال من اميمة موهنا ... وقد جعلت أولى النجوم تغور
ونحن بصحراء العذيب ودوننا ... حجازية ان المحل شطير
فزارت غريباً نازحاً جل ماله ... جواد ومفتوق الغرار طرير
وحلت بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص على أمير
تذكرهداك الله وقع سيوفنا ... بباب قديس والمكر ضرير
عشية ود القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحي طائر فيطير
اذا برزت منهم الينا كتيبة ... أتونا بأخرى كالجبال تمور
فضاربتهم حتى تفرق جمعهم ... وطاعنت اني بالطعان مهير
وعمرو أبو نور شهيد وهاشم ... وقيس ونعمان الفتى وجرير

وكان من الطبيعي أن تأثر هذه الحادثة على صاحبنا هاشم وتقض مضجعه بعض الشيء وتحرك فيه عوامل الغضب والاستياء باعتبار أن سعداً عمه وأبو زوجته ، والذي كان يوكله عنه في أغلب القضايا ويفوض اليه الامور في أكثر الأحيان ، وكان من الطبيعي أيضاً أن تتقلص مكانة هاشم في نفوس بعض الناس ، ويناوئه فريق من أهل الكوفة عداءً لعمه سعد . ولكنه مع هذا كله بقي هادئاً مستقراً ، سائراً في طريقه ملتزماً بسيرته محتفظاً على شخصيته ، ثابتاً في مكانه من قلوب الناس مثار الاحترام والتبجيل عند الجميع .

ويذهب سعد معزولا ويأتي من بعده عمار بن ياسر رضوان الله عليه أميراً على الكوفة ، فيأنس به هاشم أشد الأنس ، ويكرع من علمه وولائه للامام ما يقوي فيه الروح العلوية وينميها في نفسه ، ومن ذلك اليوم اتجهت نفوس أهل الكوفة الى الامام عليه السلام — وكان لعمار الأثر الكبير في هذا الاتجاه — حتى أصبحوا بعد ذلك من خواص شيعته ومحبيه .

ولكن أهل الكوفة قوم متقلبون لا يستقرون على حال ، أضاعوا الثبات في الجهاد وفقدوا الاستقامة في ساحات الحروب ، واضعفت الأهوال نفوسهم الى حد أصبحت فيه أشبه ما تكون بقلوب الصغار

ـ والأشعار في ذلك كثيرة لا يسعنا هنا أن نثبتها جميعاً ويكفي القارىء ماذكرناه — نموذجاً منها — وكان سعد من المنحرفين عن الامام امتنع عن بيعته فأراد جماعة من أصحابه أن يجبروه على البيعة فنعهم الامام واعرض عنه وقال يقصده : « لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

والأطفال ، كثيرة الأهواء ، متباينة الحالات سريعة الانفعال والتأثر ما أحبّت حتى كرهت ، وما رغبت في شيء حتى أعرضت عنه ، وما أنست بأحد إلا لتسأمه بعد قليل ، بهذا عرف أهل الكوفة منذ أن عرفوا ، فما كاد عمار يقيم فيهم قليلا حتى سئموه وكتبوا الى عمر يستبدلونه ويطلبون منه عزله عنهم ، ويوافق هذا الطلب في نفس عمر أشد الرغبة ، مردّه ولاء عمار للامام وامتناعه عن تأييد بيعة أبي بكر ، فيلبيه سريعاً ويعزل عماراً عن الكوفة فيفقد هاشم بعزله سلوته ، ويفارقه كل ما كان يجده من لذة وارتياح .

ويشاء سوء اختيار الكوفيين ونكد طالعهم أن يبعث الخليفة اليهم أبا موسى الأشعري أميراً ، فيزيد هذا في وحشة هاشم ويهاجمه السأم من كل باب ، ولكنها الكوفة لا تستقر على حال كما قلنا فما أسرع أن استغاثوا بعمر منه يكررون عليه الطلب بعزله ، فيعزله عمر عنهم ثم يبعث اليهم أسوء منه ويرسل المغيرة بن شعبة أميراً على الكوفة .

وكان المغيرة هذا فاسقاً مشهوراً بالفسق يعرفه الخاصة والعامة ، فما ان لاح ظله في الكوفة حتى اسودت الدنيا في عين مؤمننا هاشم وبرم بالمقام معه . ولكنه تريث في مكانه ، ينتظر حكم الكوفة في هذا الأمير الفاسق وانقلاب أهلها السريع عليه .

ومرت الأيام ثقالا على هاشم والمغيرة يسرح ويمرح أميرا في الكوفة ثم اعقبتها مثلها وأثقل منها وهو لايزال على حاله عائماً في فجوره ، غارقاً في فسقه ، يسبح في بحر من الجرائم والآثام ، ولم يكد يتسرب

السأم الى نفوس أهل الكوفة منه ويلوح لهاشم بصيص من الرجاء في عزله حتى فجأ الناس خبر طعن الخليفة عمر بيد غلام المغيرة أبي لؤلؤة فانشغل أهل الكوفة عن المغيرة وأذهلهم هذا الحادث عن الشغب عليه واستقبلوا حديث الشورى بالبحث والتحليل يتنازعون فيما بينهم فيه ويتخاصمون ؟

مع عثمانه

— ١٤ —

ولم تكن الكوفة حينذاك بالبلد الوحيد الذي شغلت قضية الشورى أهله وأحدثت فيه خلافاً بين الناس ، وتضارباً في الآراء والغايات ، فقد كانت الشوري مثارا للجدل في جميع البلدان الاسلامية على الاطلاق ولكنه جدل محدود لم يتعد حدود المنطق واللسان بقيت مراجله تغلي فى النفوس تحت ستار خفيف من الخوف والرجاء حتى اذا نفخ فيه بنو أمية بسياستهم الانتهازية الوصولية « المكيافيلية » اندلعت ناره ملتهبة ترمي بالشرر فاصطلى بلظاها الخليفة عثمان ولحق الامام من شررها ما جرّ كل تلكم المتاعب والاضطرابات الداخلية عليه .

وكانت الحاضرة الاسلامية « المدينة » من أشد هذه البلدان بلاء وأكثرها محنة ، وأعمها اختلافاً ، وقد استوفت نصيبها الراجح الموفور من هذا الجدل ، واحدثت فيها شورى عمر نزاعاً قوياً بين الأفراد والجماعات حتى كاد الناس يتجالدون فيما بينهم بالسيوف ويعدو بعضهم على بعض .

واذا كان عمر يرى بيعة أبي بكر يوم السقيفة فلتة جاهلية وقى الله المسلمين شرها فان شوراه الف فلتة جاهلية وفلتة عمّ شرها المسلمين وأحاطهم من كل جهة ومكان وخلقت لهم أحقاداً في النفوس مزّقت شمل المسلمين شرّ ممزق وفرقتهم كتلاً وجماعات يتناحرون ويتنازعون ، وستبقى هذه

الأحقاد مستمرة هكذا تموّنهم على هذا التناحر والنزاع وتستعدي فريقاً على الآخر الى يوم القيامة ، أو يعقل الجميع ويثوبوا الى هدى الله .

لاشك أن عمر في شوراه كان يريد أن يخلّف عثمان مكانه ، لأنه حبذ لأبي بكر تخليفه وكتب الوصية باسمه وأبو بكر غائب في سكرات الموت لم يأمره بذلك كما يتفق عليه جميع المؤرخين ، وكان عمر يستطيع أن يخلّف عثمان بعده وينفّذ ما يهوى ويريد بطريقة واضحة مستقيمة فينص عليه بالخلافة نصاً صريحاً كما وصى أبو بكر ونص عليه ، كان عمر يستطيع أن يفعل هذا وكان يُنَفّذ ما يريده بلا ريب وينال الخلافة بعده عثمان ، وليس هناك شك في التنفيذ مادامت القوة وحدها هي أداة الخلافة حينذاك ، وماذا صنع طلحة وغيره من المعارضين في استخلافه هو عند أبي بكر حتى يتخوف مغبة هذا التصريح ، ولكنه عمد في تخليف عثمان الى خطة معقدة ملتوية يتستر بها عما يريد ، وماذا يهمه بعد هذا ما تحدثه هذه الخطة مادام قد وفى لصاحبه وردّ عليه ما دفعه اليه ، ولكنه حقاً ظلم عثمان بشوراه لأنه فرش أمامه الطريق بالأشواك وأ ّلب الأحزاب والجماعات عليه .

الشورى مداورة مفضوحة كان القصد الأول والأخير منها تخليف عثمان بلا ريب لم تخف على أكثر الساسة والمفكرين في ذلك الوقت ، اسمع الامام علياً عليه السلام كيف يخبر عمه العباس بذلك وهو خارج من بيت عمر ، يقول له :

— عدل بالأمر عني يا عم

— وما علمك

— قرن بي عثمان ، وقال كونوا مع الأكثر ، فان رضي رجلان رجلاً ، ورجلان رجلاً ، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن ، فسعد لا يخالف ابن عمه عبدالرحمن ، وعبدالرحمن صهر عثمان لا يختلفان ، فيوليها أحدهما الآخر ، فلو كان الآخران معي لم يغنيا شيئاً .

— ضجراً — اشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تعاجل البيعة فأبيت ، وأشرت عليك حين سمّاك عمر في الشورى اليوم أن ترفع نفسك عنها ولا تدخل معهم فأبيت ، فاحفظ عني واحدة ، كلما عرض عليك القوم الأمر فقل لا : إلا أن يولّوك ، واعلم ان هؤلاء لا يبرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرك ، وأيم الله لا تناله إلا بشرّ لا ينفع معه خير — .

— أما اني أعلم انهم سيولون عثمان ، وليحدثنّ البدع والاحداث ولئن بقي لأذكرنك ، وإن قتل أو مات ليتداولونها بنو أمية بينهم ، وإن كنت حيّاً لتجدني حيث تكرهون .

ولقد صدق العباس في جميع ما قاله للامام واخلص النصح له حين أشار عليه بأن يرفع نفسه عن الشورى ولا يدخل في معمعانها ، ولكن الامام كان أبعد نظراً من العباس وأصوب هدفاً في ذلك الدخول لانه أراد أن يعرض على الناس مناقضة عمر لنفسه بهذا الترشيح وكذب ما أدعاه وشهد به يوم السقيفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث

شهد أنه يقول : — لا تجتمع النبوّة والخلافة في بيت — كما قال ذلك عليه السلام لعبدالله بن عباس حينما قال له في يوم الشورى : « ذهب الامر منّا يا أبا الحسن ، الرجل يريد أن تكون الخلافة في عثمان » فأجابه الامام يقول : « وأنا أعلم ذلك ، ولكني ادخل معهم فى الشورى لأن عمر قد أهلني الآن للخلافة ، وكان قبل ذلك يقول : أن رسول الله قال : ان النبوة والخلافة لا تجتمعان في بيت ، فأنا أدخل في ذلك لأظهر للناس مناقضة فعله لروايته » (١) .

وعلى كل حال فقد تأمر عثمان على المسلمين وتربع فى كرسي الخلافة ، ولكنه مع كل الاسف كان كأخيه عمر من قبل مشغول الذهن دائماً كثير النسيان الى أبعد الحدود ، فلم يكد يمضي عليه قليل حتى نسي وصية عمر له حينما قال له فى يوم الشورى يحذره ويقول : هيها اليك كأني بك يا عثمان قد قلدتك قريش هذا الامر لحبها إياك ، فحملت بني أُمية وبني أبي معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفيء ، فسارت اليك عصابة من ذئبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً ، والله لئن فعلوا لتفعلن ، ولئن فعلت ليفعلن ، فاذا كان ذلك فاذكر قولي ، فانه كائن ، فاياك إياك أن تحمل إن وليتها بني أُميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس .

نعم نسي عثمان كل هذا القول وكل هذا التحذير فرفع بني أُميّة

---

(١) راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ١ : ٦٣ .

وبني أبي معيط على رقاب الناس وولاهم على المسلمين ، فأقرّ معاوية بن أبي سفيان على الشام ، وبعث عبدالله بن أبي سرح على مصر ، وعبدالله بن عامر على البصرة ، والوليد بن عقبة على الكوفة ،

وبالرغم من اتصال صاحبنا هاشم بعثمان (١) وشدة اتصال عمه سعد بالخليفة كان لا يستطيع هاشم كمؤمن صلب الايمان أن يهضم جميع أفعال الخليفة ويتقبل أعمال أميره الوليد ، وليد الدعارة والمجون الذي صرّح القرآن بفسقه ، ويسكت عن كل ما يراه منه من الاستهتار ، فأخذ يقاومه مع المقاومين ويآخذه على الهفوات والزلات حتى عزله عثمان عن الكوفة وأرسل مكانه سعيد بن العاص .

ويقبل سعيد الى الكوفة فيتطبع بالايمان مدة من الزمان ويلتزم جادة السداد بعض الوقت ثم تتغلب عليه طبيعته أخيراً فيسلس لهواه العنان وتظهر منه أشياء منكرة تعلن عن فسقه وتنادي بفجوره فيبتعد مؤمننا هاشم عنه ساخطاً عليه معرضاً عنه لا يأبه لأوامره ولا يعمل بأحكامه .

وكان الأمير في عرف ذلك العصر هو الوكيل الشرعي عن الخليفة والمرجع الديني والسياسي لأهل ذلك الاقليم لا يجوز القول لأحد إلا بأمره ، ولا يجب الفعل إلا بحكمه ، فكان أهل كل اقليم يرجعون الى

(١) منشأ هذا الاتصال الأكيد غير القرابة هو ام اسحاق زوجة صاحبنا هاشم فان امها سلمى اخت عثمان زوجة سعد ابن أبي وقاص .

أميرهم بجميع مايتعلق بهم من قضايا واحكام حتى أوقات الصلاة اليومية كان يعينها عنه مؤذنه الخاص وحتى الصوم في شهر رمضان انما يجب اذا وجب عنده ، وضعه ورفعه بيده وتابع لثبوت الهلال في اوله وآخره عنده وبحسب حكمه ، وكان الخارج على أحكامه كأنه خارج على أصل النظام الاسلامي مخالف لنفس الخليفة يستحق الحد ويستوجب العقاب ، هكذا كان يقضي عرف ذلك العصر في نظر اولى الأمر ورعاع الناس وإن فرّق بعض المؤمنين من أهله بين الامير العادل الورع التقي وبين الفاسق الماجن الدعار .

ولما كان صاحبنا هاشم من اولئك المؤمنين الاخيار الذين يفرّقون بين الصنفين من الامراء لم يأبه بأحكام سعيد بن العاص في كل ما يقول ويفعل فحينما شاهد هلال شوال بنفسه أفطر وحده وضرب حكم سعيد بعدم ثبوته في عرض الجدار ، فعندها قامت قيامة سعيد وثارت به كرامته وعزّته ، ولكنه ماذا يستطيع أن يفعل وهو أمام صاحب « المنن » المرقال ، فلم يجد إلاّ أن يكتب الى عثمان في ذلك ويشكوه اليه .

وكان عثمان رجلا ضعيفاً جداً خائر الارادة منقاداً لأهل بيته متفانياً في حبهم لا يرى إلا كما يرون ولا يسمع إلا بآذانهم وكما يسمعون فلما كتب اليه سعيد بن العاص يعظّم عليه الذنب ويتخوف من مخالفة هاشم له مخالفة بقية الناس وخروجهم على نفس الخليفة كتب عثمان

الى هاشم يستدعيه اليه وأخذ يحاكمه محاكمة شديدة ، ولما عجز عن إثبات الحدّ عليه بقانون الاسلام احاله الى عواطفه الخاصة نحو أهل بيته فاعتبرته ظالماً لسعيد متعدياً عليه وحكمت عليه بالقصاص فأقصه عثمان من سعيد على يد عمه سعد ابن أبي وقاص ؟

فى بيعة الامام

- ١٥ -

وكانت لا بد أن تصدق نبوءة الخليفة عمر بن الخطاب في عثمان وتصح فراسته في مصيره المحتوم ، ما دام هو الذي سدد اليه السهم ، وشحن قلوب الزعماء عليه بالحقد وألّب الأحزاب بالشورى لمناوئته وحربه ، وما دام عثمان من الميوعة والذوبان بحيث لا يكاد يستقر على حال ومن الضعف والخور والرقة لأهل بيته وأقربائه بحيث أمسى زمام نفسه بيد الشاب الغرير المأفون مروان بن الحكم يوجهه ويقوده حسب رغبته كيفما يشتهي ويريد ، فما إن فعلت قريش وخلفته فعل هو ورفع بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس ، وما إن فعل حتى سارت اليه ذؤبان العرب كما قال عمر ففعلت وذبحته على فراشه . .

عثمان هو الذي قتل الخليفة عمر ، وليس أبو لؤلؤة الا أداته ورائد قومه بني أمية ، وعمر هو الذي قتل الخليفة عثمان انتقاماً منه لنفسه ، وليست الشورى إلا سنانه الحاد ومديته المسمومة بيد قاتليه ، بهذا حدثنا منطق الحوادث فيما حدثنا به والعهدة في كل ذلك عليه . .

ولكنّ عمر حسب ما يظهر كان قاسياً الى أبعد حد ، حقوداً بأشد ما يكون لكلمة الحقد من معنى متماديا في الحقد والقسوة ، وقد أسرف في القصاص من عثمان وبذّر في النقمة فأكال له العقاب مضاعفاً ، وأوفر له كثيراً في الجزاء . .

كان لعمر أن ينتقم لنفسه من عثمان فالقصاص بالقصاص ، وإن كان العفو هو أقرب للتقوى ، ولـكن لم يكن لعمر أن يشدد له في هذا الانتقام ويبذّر في الثار فيذيق عثمان الموتتين ويقتله جائعاً عطشاناً مغضوباً عليه حتى من الأقارب والأصدقاء . .

عبدالرحمن بن عوف قريب عثمان وصهره وأشد الناس علاقة به واتصالا ، وهو الذي اختاره من بين الستة خليفة على المسلمين ، يبعث اليه بعد ذلك بلهجة قاسية مريرة يقول : « يا ابن عفان لقد صدّقناعليك ما كنا نكذب فيك ، واني أستعيذ بالله من بيعتك ، ولو استدبرت من أمري ما استقبلت ما وليتك ، مع ان لى اموراً ما هي لك ، شهدت بدراً وما شهدتها ، وشهدت بيعة الرضوان وما شهدتها ، وفررتَ يوم أحد وصبرتُ » ثم يهجره ويجفوه منافراً الى أن يموت ، وطلحة أيضاً قريب عثمان يرتبط به من عدة نواحي من طرف الرجال والنساء ، راح يحرض الناس على قتله ويمنعهم حتى من ادخال الماء عليه حتى ضجر عثمان من شدة العطش واستدعاه يكلمه بلهجة الاستعطاف ويقول :

— أما تعلم ياطلحة ان بئر رومة كانت لفلان اليهودي لا يسقي أحداً من الناس فاشتريتها منه باربعين الفاً ؟

— بتجبر — نعم

— فهل تعلم اليوم أحدا يمنع من أن يشرب منها غيري ؟

— بكل برودة — لا

— ولم ذلك ؟

— بغلظة وجفاء — لأنك غيرت وبدلت

— فهل تعلم اني اشتريت هذا البيت بعشرين الفاً وأدخلته في المسجد ؟

— نعم

— فهل تعلم اليوم أحدا يمنع فيه من الصلاة غيري ؟

— لا

— ولم ذلك ؟

— بعنف — لأنك غيرت وبدلت

هذا طلحة وأما الزبير صديق عثمان الحميم فقد كان على رأس الثوار متقدماً أمامهم يخطب الناس مرة بعد أخرى يستعجلهم ويحثهم على قتله ويقول : « اقتلو عثمان فقد بدّل دينكم ، فقيل له ان ابنك عبدالله على بابه يحامي عنه ، فقال ما أكره أن يقتل عثمان ولو بُدِيء بابني ، ان عثمان لجيفة على الصراط غدا » هكذا كان طلحة والزبير يحرضان الناس في المدينة على عثمان ويحثانهم على قتله طمعاً في الخلافة ، دع عنك كتبهما الكثيرة المتعددة الى بقية المسلمين في مختلف البلدان ، والتي كانا يستعجلانهم فيها بالقدوم الى المدينة بلهجة مثيرة ويقولان : « أما بعد أن تعالوا الينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها ، فان كتاب الله قد بدل وسنة رسوله قد غيرت ، وأحكام الخليفتين قد بدلت ، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين باحسان إلا أقبل الينا وأخذ الحق لنا واعطاناه ، فاقبلوا الينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر

وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيكم وفارقكم عليه الخلفاء ، غلبنا على فيئنا ، وحيل بيننا وبين أمرنا ، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوّة ورحمة ، وهي اليوم ملك عضوض ، من غلب على شيء أكله » دع عنك هذا كله ودع عنك أيضاً عائشة وتأليبها على عثمان بدافع من طلحة حتى كانت تقول : « أما والله لوددت ان عثمان مقطع في غرارة من غرائري واني أطيق حمله فاطرحه في البحر الأحمر » . .

مظلوم عثمان ، كل هؤلاء واحزابهم الب عليه حتى الامام علي عليه السلام الذي كان يحاول دائماً مساعدته ودفع المعتدين عليه قدر ما يستطيع كان لا شك نافر امنه ناقماً عليه ، اسمعه كيف يقول بعد ذلك في خطبته الشقشقية - يعني عثمان - ، يقول متذمرا : « الى ان قام ثالث القوم نافجاً حضنيه ، بين نثيله ومعتلفه ، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الأبل نبتة الربيع ، الى ان انتكث فتله ، وأجهز عليه عمله ، وكبت به بطنه »

ما أنصف الخليفة عمر صاحبه عثمان حينما ألّب عليه الناس جميعاً في شوراه وفي مقدمتهم اصحاب الشورى ورؤساء الأحزاب وأسرف في القصاص منه كثيرا حتى حار أهله في دفنه واستقبل نبأ قتله المسلمون حينذاك على اختلاف طبقاتهم وتباعد منازلهم بكل شماتة وارتياح . .

ومهما يكن من شيء فقد قضى الأمر وقتل الشيخ وشاع نبأه في الامصار حتى طبق الكوفة فهرع صاحبنا المرقال الى أبي موسى الاشعري - وقد ولاه عثمان على الكوفة بعد سعيد - وأخذ يتلّه ويقول له بصرامة « بايع يا ابا موسى لخير هذه الامة علي بن أبي طالب » فاستمهله

ابو موسى بلطف قائلا : « لا تعجل ياهاشم رحمك الله » فوضع هاشم يده على الأخرى وهو يقول : هذه لعلى وهذه لي وقد بايعت خير هذه الامة ثم أنشأ يقول :

ابايع غير مكترث عليا ولا اخشى أميراً أشعريا
ابايعه وأعلم أن سأرضي بذاك الله حقا والنبيا

الى حرب الجمل

-١٦-

الشورى ما الشورى ، وما أدراك ما الشورى ، الشورى كانت وبالا على الاسلام ، والمعول الهدام فى قواعده ، وباب الاختلاف والفتنة فتحه عمر بن الخطاب على المسلمين . .

الشورى هى التي فرقت الناس وكوّنت الأحزاب ، وأسست المشا كل والاضطرابات فى المجتمع الاسلامي ، وخلقت في بعض النفوس طموحاً الى الخلافة حتى كان ما كان وقتل الخليفة عثمان . .

طلحة والزبير وعبدالرحمن وسعد ابن أبي وقاص كل هؤلاء لم يكونوا يحلمون في الخلافة قبل يوم الشورى ولكن عمر بشوراه ملأ نفوسهم بالأمانى وفتح لهم باب الرجاء على مصراعيه حتى ترائى لهم شبحها عن قريب من وراء الحجاب وراحوا يحسبون لها الف حساب وحساب . .

عمر نفسه يعلم ان هؤلاء لا يصلحون لخلافة المسلمين وليست لهم قابلية في ادارة شئونها كما صرح لهم أمام الناس بذلك في يوم الشورى وقبل وفاته بقليل ، دعنا نسمع ما يقول فيهم واحداً واحداً ، قال لهم يخاطبهم وقد جمعهم فى بيته : « أفلا أخبركم عن انفسكم ، أما أنت يازبير فوعق لقس ، مؤمن الرضا كافر الغضب ، يوما انسان ويوما شيطان ولعلها لو أفضت اليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مدّ من شعير ، أفرأيت إن أفضت اليك فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطانا

ومن لهم يوم تغضب ، أما وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الامة وأنت على هذه الصفة ، وأما أنت ياطلحة فاني أعرفك منذ أصيبت اصبعك يوم احد بالذي حدث لك ، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها (١) يوم نزلت آية الحجاب ، وأما أنت ياسعد فصاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به ، وصاحب قنص وقوس وأسهم ، لا تقوم بادارة قرية من هذه القرى ، وما زهرة والخلافة وامور الناس ، وأما أنت ياعبدالرحمن فلو وزن نصف ايمان المسلمين بايمانك لرجح ايمانك ، ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك ومازهرة وهذا الأمر » . .

عمر يعلم بعدم كفاءة هؤلاء للخلافة فلماذا إذن رشحهم لهذا المنصب وأدخلهم فى شوراه ؟ سؤال اعجزني الجواب عنه جواباً معقولا يبرر عمل الخليفة فى هذا الترشيح ، ولعل غيري أيضاً لا يستطيع عنه الجواب وما هو الا باب من أبواب الشر فتحه عمر بقصد او من غير قصد على المسلمين ولكنه على كل حال أثر أثره الفعّال واكتسح الأخضر واليابس فأحاله هشيما تذروه الرياح وتتلاقفه الاجواء من واحد الى آخر .

هب أن عثمان كان مصرعه نتيجة لسوء تدبيره وضعفه وحبه لبني أمية وبني أبي معيط حتى رفعهم على رقاب الناس واختصهم بالعطايا والهبات فما بال الامام يلقى فى خلافته كل تلكم المتاعب والصعاب ؟ وأى

« ١ » قال أبو عثمان الجاحظ أن طلحة قال « بمحضر ممن نقل ذلك الى النبي » يوم نزلت آية الحجاب ، ما الذي يغنيه حجابهن وسيموت غداً فتنكحهن .

شيء يعيبه حتى يمتنع سعد ابن أبي وقاص عن بيعته ويخرج عليه طلحة والزبير ناكثي العهد يدعوان الى حربه وقتاله، دم عثمان حجة واهية وستار مخرّق مفضوح يكشف عما ورائه من الأغراض والغايات، الله والسماء والأرض وهما أنفسهما، الجميع يعلمون انهما لم يأسفا على قتل عثمان ولا الطلب بدمه يريدان، دم عثمان؟ ومن أراقه غيرهما؟ وعند من هو إن لم يكن عندهما؟ وما هما وعثمان والطلب بدمه، وأبناؤه أولياء الدم حضور أحياء؟ دم عثمان حجة أوهن من بيت العنكبوت تذرّع بها طلحة والزبير لنيل ما زرعه عمر في نفسيهما يوم الشورى من الامل في الخلافة..

ولكن هيهات هيهات، ثم الف هيهات وهيهات أن يصلا الى ما يريدان ويبلغا الخلافة مهما يعملا ويقولا وإن جمعا الرجال والسلاح وزحفا على البصرة وإن أخرجا معهما عائشة وإن أظهرا الطلب بدم عثمان وإن تذرعا بألف وسيلة ووسيلة، ما دام الخليفة هو الامام علي وصاحب ذي الفقار فحسب، وما دام اصحابه المخلصون الابطال كهاشم المرقال وقد التفوا حوله يتفانون دونه بالارواح ويدافعون عن حقه حتى آخر قطرة يملكونها من الدماء، وليس الامام بحازم إن لم يتبعهما بمن تخفف من أصحابه ويخرج من المدينة بحث السير علّه يجدهما في الطريق فيصدهما عن الفتنة ويردهما عن غيهما قبل أن يصلا الى البصرة، فيشقا عصا الامة ويحدثا الاختلاف والفرقة بين المسلمين..

ولكنهما لسوء حظهما يسبقانه الى البصرة ويفوتانه في الطريق فيقف الامام في ذي قار يتمايستجمع قواه ويقدم اليه جنده، فيبعث صاحبنا المرقال ـ وكان

معه توجه اليه من الكوفة ـ بكتاب الى أبي موسى الاشعري أمير الكوفة ليحث الناس على الخروج ويبعث اليه بالرجال ويقول له فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من علي أمير المؤمنين الى عبدالله بن قيس ، اما بعد ، فاني أرسلت اليك هاشم بن عتبة المرقال لتشخص معه من قبلك من المسلمين ليتوجهوا الى قوم نكثوا بيعتي وقتلوا شيعتي ، وأحدثوا في هذه الامة الحدث العظيم ، فاشخص الي معه حين يقدم بالكتاب عليك ، ولا تحبسه فاني لم أقرك في المصر الذي أنت فيه الا لتكون من أعواني وأنصاري على هذا الأمر والسلام » فيسير هاشم بهذا الكتاب الى الكوفة ويسلمه الى أبي موسى الأشعري ويستعجله بالاطاعة فيستمهله ابو موسى قليلا ، ثم يبعث اليه مع السائب بن مالك يهدده ويتوعده بالسجن ويوبخه على نصرة الامام ويمتنع عن مساعدته ، فيكتب هاشم الى الامام يخبره بذلك ويقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . الى امير المؤمنين من هاشم بن عتبة أما بعد يا أمير المؤمنين فاني قدمت بكتابك على امرء شاق عاق ، بعيد الرحم ، ظاهر الغل والشقاق ، وقد بعثت اليك بهذا الكتاب مع المغل ابن خليفه أخي طي ، وهو من شيعتك وأنصارك ، وعنده علم ما قبلنا فاسأله عما بدا لك واكتب الي برأيك أتبعه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » فلما قرأ الكتاب الامام غضب كثيراً وأرسل ابنه الحسن عليه السلام ومعه عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة رضوان الله عليهما ثم أتبعهم بمالك الأشتر طيب الله ثراه وبعد منازعة شديدة مع أبي موسى نفر أهل الكوفة وخرجوا لمساعدة الامام حتى قدموا عليه

في ذي قار فرحب الامام بهم كثيراً ، ثم سار امامهم الى البصرة يتوقع الصلح ويرجو أن يرجع طلحة والزبير الى طريق الحق والرشاد . .

ولكن أين طلحة والزبير من الحق ، وكيف يرجعان الى الهدى والرشادوالشورى ملأت نفوسهم بالثقة من قابليتهم للخلافة ، وانتصارهم على عامل البصرة عثمان بن حنيف قرّب الطريق بينهم وبين ما خرجا لأجله وتمنياه ، وليس بينهم وبين الخلافة على ما كانا يتصوران سوى قليل وقليل جداً يقدم عليهما الامام بجيشه الصغير في خلاله فيخبطانه سريعاً ويتربعان على كرسيها من دون منازع يعكّر عليهما الصفاء .

هكذا كانا يتصوران ولذلك لم تنفع نصائح الامام فيهما على كثرة ما كان يسديها اليهم بأساليب مختلفة ويعرضها عليهم في مختلف الأوقات ومرة بعد أخرى ، فلما أصرا على الغي وبادرا الامام بالعدوان برميانه بالنبل اضطر الامام على تأديبهما بالسيف وزحف اليهما وعلى خيل قريش وكنانة الكوفيين بطلنا هاشم المرقال ، وما هي الا جولة شدد فيها عليهما الخناق حتى هزم جيشهما واذاقهما عاقبة غيهما فخرا قتيلين يتخبطان في غياهب الظلم والطغيان .

مع الإمام

— ١٧ —

سبحان الله حتى ابن آكلة الأكباد معاوية بن هند كان يطمع فى الخلافة ويرجو أن ينال امرة المؤمنين ، وذلك كله من تأثير الشورى ونتائجها السيئة لأن الخليفة عمر خرق فيها المقاييس الاسلامية والعرفية للخلافة حينذاك ولم يلتزم بقاعدة معينة تعين الخليفة من غيره وتميز الناس بعضهم من بعض وبقدر ما يكونون من تلك القاعدة .

كانت المقاييس الاسلامية للخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبل بيعة أبي بكر — بغض النظر عن حديث النص — هي السبق في الاسلام ، والقوة فى الايمان ، وبيعة الرضوان ، والثبات في معركة أحد ، والهجرة في سبيل الله وكثرة الجهاد من أجله ، الى غير ذلك من الشرائط والصفات التي كان يعتبرها المسلمون حينذاك ككثرة العلم وشدة الحلم والحنكة في الرأي ، و ، و ، الى آخر ما هنالك من الشرائط والصفات ، فلما جاء يوم السقيفة انقلبت هذه المقاييس جميعاً ، واستحالت كلها مقياساً واحداً ، وأصبحت الخلافة بموجبه وقفاً على من كان أكبر المسلمين سناً ، وأطولهم ذقناً ، ولما جاء عمر ألغى هذا المقياس أيضا ، وأباح الخلافة في شوراه حتى لمن مات رسول الله ساخطاً عليه ، فلماذا اذن لا يطمع معاوية في الخلافة وليكن ابن من يكون ، وليفعل ويقل قبل الاسلام وبعده كل ما كان يفعل ويقول ، مادام عمر قد فتح

باب الخلافة على مصراعيه ، وتركه خالياً من غير بواب مُهزة للجميع حتى طمع فيها اللقطاء وحاولها الطلقاء وأبناء الطلقاء .

ولكن الامام مع علمه بنفسية معاوية الشريرة الجشعة ، وبما يضمره من الطمع فى الخلافة ترفق به على ما عُرف عن الامام من الرفق والكياسة ، وارسل اليه رسوله الخاص من الكوفة بعد قدومه من البصرة بقليل ، وكتب اليه بلهجته الصريحة الواضحة يشرح له قضية مقتل عثمان ويدعوه الى الدخول فيما دخل فيه المسلمون من البيعة ، فيرد عليه ابن هند أبشع الرد بصلافة ويكتب اليه مداوراً يلوذ بأغراضه خلف دم عثمان ، ويتهمه بقتله والمساعدة عليه ، فيغضب الامام عليه السلام من بغيه ويكتب اليه يذكر له بلاءه هو فى الاسلام وشدة محنته من أجله ويعنفه وينذره بالحرب ويقول : « من عبدالله علي أمير المؤمنين الى معاوية بن أبي سفيان . أما بعد ، فان أخا خولان قدم علي بكتاب منك ، تذكر فيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وما أنعم الله عليه به من الهدى والوحي . والحمد لله الذي صدقه الوعد ، وتمم له النصر ، ومكّن له في البلاد ، وأظهره على أهل العداء والشنآن من قومه الذين وثبوا به ، وشنفوا له ، وأظهروا له التكذيب ، وبارزوه بالعداوة ، وظاهروا على إخراجه وعلى إخراج أصحابه وأهله وألّبوا عليه العرب ، وجامعوهم على حربه ، وجهدوا في أمره ، كل الجهد ، وقلّبوا له الامور حتى ظهر أمر الله وهم كارهون . وكان أشد الناس عليه ألبة اسرته والأدنى فالأدنى من قومه إلا من عصمه الله ، يابن هند . فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا ، ولقد قدمت فأفحشت ،

إذ طفقت تخبرنا عن بلاء الله تعالى في نبيه محمد ﷺ وفينا ، فكنت في ذلك كجالب التمر الى هجر ، أوكداعي مسدّده الى النضال ، وذكرت ان الله اجتبى له من المسلمين أعواناً أيّده الله بهم ، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الاسلام ، فكان أفضلهم — زعمت — في الاسلام وأنصحهم لله ورسوله الخليفة ، وخليفة الخليفة ، ولعمري إن مكانهما في الاسلام لعظيم ، وان المصاب بهما لجرح في الاسلام شديد وذكرت ان عثمان كان في الفضل ثالثاً ، فان يكن عثمان محسناً فسيجزيه الله باحسانه ، وإن يك مسيئاً فسيلقى ربّاً غفوراً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولعمر الله اني لأرجو اذا أعطى الله الناس على قدر فضائلهم في الاسلام ونصيحتهم لله ولرسوله أن يكون نصيبنا في ذلك الأوفر . إن محمداً ﷺ لما دعا الى الايمان بالله والتوحيد كنا أهل البيت أول من آمن به ، وصدق بما جاء به ، فلبثنا أحوالا مجرّمة وما يعبد الله في ربع ساكن من العرب غيرنا ، فأراد قومنا قتل نبينا ، واجتياح أصلنا ، وهموا بنا الهموم وفعلوا الأفاعيل ، فمنعونا الميرة وأمسكوا عنا العذب ، وأحلسونا الخوف ، وجعلوا علينا الأرصاد والعيون ، واضطرونا الى جبل وعر ، وأوقدوا لنا نار الحرب ، وكتبوا علينا بينهم كتاباً لا يواكلونا ولا يشاربونا ولا يناكحونا ولا يبايعونا ولا نأمن فيهم حتى ندفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقتلوه ويمثلوا به ، فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم الى موسم ، فعزم الله لنا على منعه والذب عن حوزته ، والرمي من وراء حرمته ، والقيام بأسيافنا دونه في ساعات

الخوف بالليل والنهار ، فمؤمننا يرجو بذلك الثواب وكافرنا يحامي به عن الأصل . فأما من أسلم من قريش بعد ، فانهم مما نحن فيه أخلياء ، فمنهم حليف ممنوع ، أو ذو عشيرة تدافع عنه فلا يبغيه أحد بمثل ما بغانا به قومنا من التلف ، فهم من القتل بمكان نجوة وأمن ، فكان ذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم أمر الله رسوله بالهجرة وأذن له بعد ذلك في قتال المشركين ، فكان اذا احمرّ البأس ودعيت نزال أقام أهل بيته فاستقدموا ، فوقى بهم أصحابه حرّ الأسنة والسيوف ، فقتل عبيدة يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وجعفر وزيد يوم مؤتة ، وأراد الله من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم غير مرة ، إلا أن آجالهم عجلت ، ومنيته أخرت ، والله مولى الاحسان اليهم والمنّان عليهم ، بما قد أسلفوا من الصالحات ، فما سمعت بأحد ولا رأيت فيهم من هو أنصح لله في طاعة رسوله ، ولا أطوع لرسوله في طاعة ربه ، ولا أصبر على اللأواء والضراء وحين البأس ومواطن المكروه مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هؤلاء النفر الذين سميت لك ، وفي المهاجرين خير كثير نعرفه ، جزاهم الله بأحسن أعمالهم وذكرت حسدي الخلفاء ، وابطائي عنهم وبغيي عليهم ، فأما البغي فمعاذ الله أن يكون ، وأما الابطاء عنهم والكراهة لأمرهم فلست اعتذر منه الى الناس ، لأن الله جل ذكره لما قبض نبيه قالت قريش : منا أمير ، وقالت الانصار منا أمير ، فقالت قريش : منا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فنحن أحق بذلك الامر . فعرفت ذلك الانصار فسلمت لهم

الولاية والسلطان ، فاذا استحقوها بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم دون الانصار فان اولى الناس بمحمد أحق بها منهم ، وإلا فان الانصار اعظم العرب فيها نصيبا ، فلا أدري أصحابي سلموا من أن يكونوا حقي أخذوا أو الانصار ظلموا ، بل عرفت أن حقي هو المأخوذ ، وقد تركته لهم تجاوز الله عنهم ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان وقطيعتي رحمه ، وتأليبي عليه ، فان عثمان عمل ما قد بلغك ، فصنع الناس به ما قد رأيت وعلمت اني كنت في عزلة عنه ، إلا أن تتجنى ، فتجنّ ما بدا لك . وأما ما ذكرت من أمر قتلة عثمان فاني نظرت في هذا الامر وضربت أنفه وعينيه فلم أر دفعهم اليك ولا الى غيرك ، ولعمري لئن لم تنزع عن غيّك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك ، ولا يكلفونك أن تطلبهم في برّ ولا بحر ، ولا جبل ولا سهل ، وقد كان أبوك اتاني حين ولى الناس أبا بكر فقال : أنت أحق بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الامر ، وأنا زعيم لك بذلك على من خالف عليك أبسط يدك أبايعك ، فلم أفعل . وأنت تعلم ان أباك قد كان قال ذلك وأراده حتى كنت انا الذي أبيت . لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الاسلام فأبوك كان أعرف بحقي منك فان تعرف من حقي ما كان يعرف أبوك تصب رشدك ، وان لم تفعل فسيغني الله عنك » .

هذا كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام الى معاوية سليل الامويين ونغل من حاول جهده على اطفاء نور الله ، لخص فيه جماع أمره له من حين وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى أيام خلافته وعرض له عرضاً

شاملا يدله فيه على طريق السداد ويهديه الى جادة الهدى والرشاد ، ثم يذكره فيه بما لاقى النبي وأهل بيته من يد أمية وأشياعهم من ضروب المحن والابتلاء ، وقد ذكرناه هنا بكامله لأنه أصدق نص تاريخي يعطينا صورة واضحة عما كان يبذله الامام من الجهود فى لمّ شمل الامة ، واقناع معاوية على البيعة بالتي هي أحسن ، ثم هو بعد ذلك وقبله خلاصة تاريخ العصر الاسلامي وآية من آيات الأدب العربي لا بد للمؤرخ والأديب من الاطلاع عليه . .

ولكن معاوية اللقيط لم ينفع فيه كل هذا الحديث ، ولم يرجع عن بغيه ويعود بهذا الكتاب الى طريق الرشاد ، وكيف يعود والاماني بالخلافة تتلاقفه من كل مكان ، والشورى مهدت له الطريق وقربتها اليه حتى اعتقد انه قاب قوسين منها أو أدنى ، فرد على الامام أيضاً مصراً على بغيه يدرع بدم عثمان ، فجمع الامام أصحابه الافذاذ وأخذ يستشيرهم في المسير الى الشام لقتال معاوية ، فهب صاحبنا هاشم يحرضه على المسير ويستعجله فى ذلك بكل اخلاص ويقول : « أما بعد يا أمير المؤمنين ، فأنا بالقوم جد خبير ، هم لك ولأشياعك أعداء ، وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء ، وهم مقاتلوك ومجاهدوك لا يبقون جهداً ، مشاحّة على الدنيا وضناً بما فى أيديهم منها ، وليس لهم إربة غيرها إلا ما يخدعون به الجهال من الطلب بدم ابن عفان ، كذبوا ليسوا بدمه يثأرون ، لكن الدنيا يطلبون ، فسر بنا ، فان أجابوا الى الحق فليس بعد الحق إلا الظلال وإن أبوا إلا الشقاق فذلك الظن بهم ، والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد

ممن يطاع إذا نهى ، ويسمع إذا أمر » — هكذا قال صاحبنا المرقال الامام وهو قول يطفح فيه الاخلاص للحق ويفيض بالرشد والسداد ، القاه هاشم الى الامام يستعجله فى المسير إلى قتال الباغين ويتحرق فيه شوقا لحرب ابن آكلة الاكباد وجهاد معاوية بن هند فان جهاده لجزؤ من كفاحه فى سبيل الاسلام وتكملة لدحض الباطل واتمام لماضيه المجيد في قتال الروم وأهل فارس وقد طال المكث — بالمنن — سيفه البتار وآن له بعد قتال الجمل أن يشهره في سبيل الله .

الى صفين

— ١٨ —

ولما عزم أمير المؤمنين علي عليه السلام على المسير الى الشام لحرب معاوية بادر بطلنا المرقال بأصحابه فسبق الناس متخففاً ونزل في النخيلة ينتظر قدوم الامام عليه من الكوفة في بقية الجيش ليسير في ركابه الى صفين ، وقدم عليه الامام فعسكر بالنخيلة ومرّ بث فيها قليلا ، وبينما هو في خدمة الامام في جماعة من الصحابة والتابعين يتذاكرون بغي أهل الشام ويتكلمون في معاوية وخروجه عن الدين التفت زياد بن النضر الحارثي لعبدالله بن بديل بن ورقاء يقول : إن يومنا ويومهم - يعني أهل الشام - ليوم عصيب ، ما يصبر عليه الا كل مشيّع القلب صادق النية ، رابط الجأش ، وأيم الله ما أظن ذلك اليوم يبقي منا ومنهم الا الرّذال ، فأجابه عبدالله مصدقا يقول : والله أظن ذلك ، فالتفت الامام اليهما - وقد خاف ان تسري مقالتهما في الجيش وتجبنه - يقول : ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدريكما ، لا تظهراه ولا يسمعه منكما سامع ، ان الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين ، وكل آتيه منيّته كما كتب الله له ، فطوبى للمجاهدين في سبيل الله والمقتولين في طاعته ، فلما سمع هاشم كلام الامام ورأى ما داخل نفسه من محاورة زياد مع عبدالله ، أراد أن يرفع ما في نفسه ويزيد الناس ثباتاً على قتال أهل الشام ، فقام في الجيش خطيباً وتوجه الى الامام بوجهه يقول : سر بنا ياأمير المؤمنين الى هؤلاء القوم

القاسية قلوبهم ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستولاهم الشيطان ووعدهم الاباطيل ، ومناهم الاماني حتى ازاغهم عن الهدى ، وقصد بهم قصد الردى ، وحبّب اليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها ، كرغبتنا في الآخرة انجاز موعود ربنا ، وأنت يا أمير المؤمنين اقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه رحماً ، وأفضل الناس سابقة وقدماً ، وهم يا أمير المؤمنين منك مثل الذي علمنا ، ولكن كتب عليهم الشقاء ، ومالت بهم الاهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشرحة لك ببذل النصيحة ، وأنفسنا تنصرك جذلة على من خالفك وتولى الأمر دونك ـ ثم يرفع صوته بلهجة كلها مودة واخلاص ويقول ـ والله يا أمير المؤمنين ما أحب أن لى ما في الارض مما أقلت ، وما تحت السماء مما أظلت ، واني واليت عدوّاً لك ، أو عاديت ولياً لك بهذه الكلمات استقبل المرقال أمير المؤمنين عليه السلام فملأ نفسه بالثقة من اخلاص أصحابه وافرغ في روحه موجة من السرور والارتياح ، وللتعليق على هذه الكلمات وما تحمله فى طياتها من الايمان والولاء للامام محل آخر من هذا الكتاب ، وحسبنا أن نلمس أثرها البعيد في نفس الامام فى قوله عليه السلام حينما اجابه يقول داعياً له بكل خير ـ اللهم ارزقه الشهادة فى سبيلك ، والمرافقة لنبيك صلى الله عليه وآله وسلم ـ

ثم أمر الامام جيشه في المسير وتحرك من النخيلة وهاشم فى ركابه على ثلة من الجند حتى اذا وصل الى قرية دون قرقيسيا بقليل أقبل عليه الحارث بن جهان

الجعفي برسالة من أميريه على المقدمة ، وكان الامام قد قدّم امامه من الكوفة زياد بن النضر وشريح بن هاني وبعثهما في اثنى عشر الفاً من رجاله طليعة نحو معاوية فلما وصل شريح وهاني في الطليعة الى سور الروم لقيهما بها ابو الاعور السلمي في طليعة معاوية فواقفاه هنالك ينتظران رأي الامام فيه وارسلا رسولهما بكتاب الى الامام يخبرانه بذلك فبعث الامام مالك الأشتر رضوان الله عليه أميراً عليهما وأصحبه بالبطل المرقال عوناً له فسار مالك وهاشم معه يحثان السير حتى لحقا بالمقدمة واعذرا بالحجة يردعان أهل الشام عن بغيهم كما أمرهما بذلك الامام فلما قابلهم أبو الأعور بالعدوان ناوشاه القتال ساعة الى الليل ، ثم بكر عليه بطلنا هاشم في عدة من الابطال المغاوير وهجم عليه يأخذ عليه الخناق ويقاتله قتالا شديداً حتى حجزه عن أهل الشام الليل ولم يزل يقاتلهم هكذا بشدة حتى انهزم ابو الأعور في مقدمة معاوية راجعاً الى الشام متخفياً بستار الظلام فبقي هاشم في مكانه الى أن أقبل عليه الامام فسار في ركابه الى صفين ؛

هاشم وعمرو

— ١٩ —

وكان أهل الشام قد سبقوا الامام الى صفين فعسكروا في أرحب جوانبه وأحاطوا بشريعة الماء من كل جهة ومكان فلما جاء أصحاب الامام ليأخذوا حاجتهم من الماء منعهم أبو الأعور السلمي فرجعوا الى الامام واخبروه بذلك فندب الامام مالك الأشتر رضوان الله عليه وبعث معه بطلنا المرقال في جماعة من الأبطال فتقدم الأشتر الى الماء وهو يقول :

اليوم يوم الحفاظ بين الكماة الغلاظ
نحفزهـا والمظـاظ

ثم هجم على أهل الشام وهجم بعده هاشم والأبطال من حوله وأخذوا يضربون أهل الشام بالسيوف حتى أفرجوا لهم عن الماء وخلوا بينهم وبينه فشرب أصحاب الامام وحملوا معهم منه ما يستطيعون .

ولما كان اليوم الثاني من نزول الامام بصفين أطلّ على الناس هلال ذي الحجة من برجه يذكّرهم بحلول الأشهر الحرم ويمنعهم من القتال فتهادن الفريقان الى آخر محرم ، وأقام كل منهما في معسكره ، ينتظر اليوم الموعود بخشية وارتياب ، وأخذ الامام في خلال هذه المدة يبعث الرسول تلو الرسول الى معاوية ويكتب الى أهل الشام مرة بعد اخرى يحذرهم من البغي ويرشدهم الى طريق الهدى والصواب حتى اذا انقضت الأشهر الحرم واخبرهم هلال صفر بانسلاخها ارسل اليهم رسوله يقول :

— اني احتججت عليكم بكتاب الله ، ودعوتكم اليه ، واني قد نبذت اليكم على سواء ، ان الله لا يحب كيد الخائنين — فردوا عليه بوحي من بغيهم يقولون : — السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا — فعندها صف الامام أصحابه ورتبهم للقتال ودفع رايته العظمى الى صاحبنا المرقال لاعتماده على بطولته وحنكته ثم أمر مالك الأشتر أن يخرج بكتيبة الى قتال أهل الشام فخرج الأشتر وقاتلهم قتالاً شديداً الى الليل ، ثم أمر في اليوم الثاني بطلنا المرقال أن يخرج اليهم فخرج هاشم وقد استقبله أبو الأعور السلمي فى رجاله فجعل يضربهم بسيفه حتى أعاده منسحباً الى معاوية ، وهكذا أخذ الامام يخرج كل يوم بطلا من أصحابه ويخرج له معاوية بطلا من أهل الشام فيتقاتلان ذلك اليوم قتالا شديداً الى أن يقبل الليل، فلما رأى الامام صبر أهل الشام على القتال وثباتهم على بغيهم عزم على الهجوم العام وقال لأصحابه : حتى متى لا نقاتل القوم بأجمعنا فبكر على أهل الشام بالقتال فى جميع الجيش يحمل رايته العظمى أمامه هاشم يرقل بها ارقالا ومعه الحدل (١) التي يقول فيها مالك الأشتر رضوان الله عليه :

وإنا إذا ما احتسبنا الوغى ... ادرنا الرحى بصنوف الحُدُلْ
وضرباً لهاماتهم بالسيوف ... وطعناً لهم بالقنا والأسل
عرانين من مذحج وسطها ... يخوضون أغمارها بالهَبَل

(١) الحدل جمع جدلاء، وهي: القوس قد حدرت احدى سيتيها ورفعت الاخرى: وفي بعض النسخ (الجدل) جمع جدلاء للدرع المجدولة .

ووائل تسعر نيرانهـــا ينادونهم أمرنا قـــد كمل
أبو حسن صوت خيشومهـــا بأسيافه كل حام بطـــل
على الحق فينا له منهـــج على واضح القصد لا بالميـــل

وتقدم هاشم بهذه الراية صوب أهل الشام يوزعهم بسيفه ويجندل أبطالهم فبرز اليه عمرو بن العاص وهو يرتجز ويقول .

لا عيش إن لم ألق يوماً هاشما ذاك الذي أجشمني المجاشمـــا
ذاك الذي أقام لي المـــآتما ذاك الذي يشتم عرضي ظالما
ذاك الذي إن ينج مني سالمـا يكن شجاً حتى الممات لازما

فتلقاه صاحبنا هاشم مزبداً يقول :

لا عيش إن لم ألق يومي عمروا ذاك الذي أحدث فينا الغدرا
أو يحـــدث الله لأمر أمرا لا تجزعي يا نفس صبراً صبرا
ضربا هذاذيك وطعنـــا نزرا ياليت ماتجني يكون قبرا (١)

ثم حمل عليه برمحه يطاعنه ساعة فانهزم عمرو راكضاً الى معاوية وتبعه هاشم يضرب بأهل الشام ضرباً منكراً ويفرق صفوفهم برمحه حتى ضجر منه معـــاوية وضاق به كثيراً وجمع رؤساء عسكره يستعديهم ويحرضهم عليه .

---

(١) هذاذيك : أي هذّاً بعد هذ ، يعني قطعاً بعد قطع .

بطولة وتضحية

— ٢٠ —

أياهاشم : أما تخشى من نفسك أن تكون اعور وجباناً ؟

بهذا استقبل الامام قائده العظيم المرقال فى ساحة صفين يمازحه ويحرضه على الاقدام ، فالتهبت بهاشم بطولته ، وأحالته النخوة الى كانون من حماس ، فأجاب الامام وكله تضحية يقول : ستعلم ياأمير المؤمنين ، والله لألفنّ اليوم بين جماجم القوم لفّ رجل ينوي الآخرة ثم راح يهتز حماساً وأخذته رعشة مثل الافكل ، فتناول رمحه يهزّه فانكسر ، ثم تناول آخر فوجده جاسياً فألقاه ، ثم دعا برمح لدن فأخذه وشد به لواء الامام الخاص ، وظل واقفاً في مكانه يهتز وهو يستعرض صفوف أهل الشام وينظر اليهم يريد أن يركّز هجومه فيهم ويضربهم بضربته القاضية القتالة . فاستبطأه زعيم من أصحابه المخلصين من بني بكر ابن وائل معروفاً بالشجاعة والبطولة فأخذ يستعجله فى الهجوم ويقول : اقدم هاشم ، اقدم هاشم ، يكررها مراراً ، وهاشم لا يزال في مكانه واقفاً يدير طرفه فى أهل الشام ، فضجر الرجل من كثرة الوقوف ورفع صوته يخاطبه بحدة ويقول : مالك ياهاشم قد انتفخ سحرك ، أعوراً وجباناً ، فسئل هاشم اصحابه وعينه ثابتة فى القوم وقال : من هذا ؟ قالوا له فلان فعرفه هاشم والتفت اليه معجباً بحماسه يثني على بطولته ويقول : اهلها وخير منها ، اذا رأيتني صرعت فخذ

الراية ، ثم توجه الى أصحابه يلقي عليهم تعاليمه العسكرية ويأمرهم بالاستعداد ويقول : شدّوا شسوع نعالكم ، وشدوا ازركم ، فاذا رأيتموني قد هززت الراية ثلاثاً فاعلموا أن احداً منكم لا يسبقني الى الحملة ، ثم أعاد نظره الى أهل الشام وأخذ يسأل اصحابه عنهم مشيراً الى فرقهم ويقول :

— من اولئك ؟

— اصحاب ذي الكلاع

— ومن اولئك ؟

— جند أهل المدينة وقريش

— قومي ، لا حاجة لى في قتالهم ، فمن عند هذه القبة البيضاء ؟

— معاوية وجنده

— يمعن بالنظر - فاني أرى دونهم اسودة (١)

— ذاك عمرو بن العاص وابناه ومواليه

— يتناول الراية ليهزها منذراً بالحملة

— امكث قليلا ولا تعجل

فيأخذ الراية ويهزها ويهجم نحو معاوية يرقل اليه ارقالا وهو يقول :

قد أكثروا لومي وما أقلا انى شريت النفس لن اعتلا
أعور يبغي أهله محلا قد عالج الحياة حتى ملا

(١) الأسودة : جمع سواد ، وهو الشخص

لا بد أن يَفْـــل أو يُفَـــلا أشلهم بذي الكعوب شلا
مع ابن عم أحمـــد المعلى فيه الرسول بالهدى استهلا
أول من صدقـــه وصلى وجاهـــد الكفار حتى أبلى

وهكذا أخذ يطعن أهل الشام برمحه ويشلهم به شلا عنيفاً ويتقدم الى معاوية حتى يصل الى صفوف المعقلين ، وكان ثلاثون الف بطل من أصحاب معاوية قد تحالفوا على الموت وعقلوا أنفسهم بالعمائم لئلا يفروا وجثوا في خمسة صفوف حوله يدافعون عنه دفاعا شديداً ، فلما وصل اليهم هاشم استغاث معاوية بأبي الأعور السلمي قائده العام وحامل راية أهل الشام العظمى فتقدم أبو الأعور وهو يقول (١)

اذا ما فررنا كان أسوا فرارنا صدود الخدود وازورار المناكب
صدود الخدود والقنا متشاجر ولا تبرح الأقدام عند التضارب

فجعل هاشم يقاتله قتالا شديداً ويهاجمه مهاجمة الأسد الغضوب وأقبل عليه عمار بن ياسر رضوان الله عليه وهو ينادي : أين من يبغي رضوان ربه ، ولا يؤوب الى مال ولا ولد ، فوقف له هاشم واجتمع عليه جماعة من الأبطال فقال عمار : أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبغون دم عثمان ، ويزعمون انه قتل مظلوما ، والله إن كان إلا ظالماً نفسه ، الحاكم بغير ما أنزل الله ، ثم دنا من هاشم وقال له احمل ياهاشم رحمك الله ، احمل فداك أبي وامي ، فحمل هاشم فقام في

(١) هذان البيتان ليسا لأبي الأعور . وانما هما من قصيدة طويلة لقيس ابن الخطيم ويجوز أن يكون أبو الأعور قد استشهد بهما .

وجهه المعقلين من أصحاب معاوية وقاوموه مقاومة عنيفة فجعل هاشم يقاتلهم ويزحف بالراية زحفاً حسب ما تقتضيه منه حنكته العسكرية ليصل الى معاوية ، فأخذ عمار يستعجله بالزحف وينخسه بالرمح ويقول له : اقدم ياهاشم ، اقدم ياهاشم ، لا خير فى أعور لا يأتي الفزع ، فيتقدم هاشم بالراية حياء من عمار ثم يركزها ليلتحق به أصحابه ، فاضطرب عمرو بن العاص كثيراً ، وأخذه الخوف من هاشم فجعل يقول لأصحابه مضطربا : اني لأرى لصاحب الراية السوداء عملا لئن دام على هذا لتفنين العرب اليوم ، ولم يزل عمار بهاشم ينخسه بالرمح ويقول له : إقدم ياأعور ، لا خير فى أعور لا يأتي الفزع ، فالتفت اليه هاشم بأدب واجلال ، وأخذ يشرح له خطته فى الزحف ويقول له : رحمك الله ياعمار ، انك رجل تأخذك خفة في الحرب ، وانى إنما أزحف باللواء زحفاً أرجو أن أنال بذلك حاجتي ، وإني إن خففت لم آمن الهلكة وهكذا أخذ هاشم يزحف باللواء ويتقدم حتى اخترق الصف الأول من المعقلين وأبادهم ثم جاوزهم الى الصف الثاني وجعل يقاتلهم قتالا شديداً الى أن انكشفوا أمامه ووصل الى الصف الثالث وعليه يؤمئذ درعان فلما رأى ذلك معاوية جف ريقه في فمه من الخوف وأرسل الى عمرو ابن العاص يقول : ويحك ، ان اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة ، وقد كان من قبل يرقل به ارقالا ، وإنه إن زحف به اليوم زحفاً إنه لليوم الأطول لأهل الشام ، وإن زحف في عنق من اصحابه انى لأطمع أن تقتطع ، ثم وجه اليه حماة أصحابه والمشهورين من أهل الشام بالبأس والبطولة

وبعث معهم عبدالله بن عمرو بن العاص فتقدم هؤلاء الى هاشم فعطف عليهم بطلنا المرقال وأحاطهم برجاله فجعل عمرو يصيح كالمجنون خوفاً على ابنه ويقول : يالله ، يارحمن ، ابني ، ذهب ابني ، وجعل معاوية : يصبره ويقول له : صبراً ، صبراً ، فانه لا بأس عليه ، فوثب عمرو من مكانه مخذولا وهو يقول : ولو كان يزيد بن معاوية اذن لصبرت ، ابني ، ابني ، يالله ، يارحمن ، ثم أخذ يحرض أهل الشام ويستنجدهم حتى شغلوا أصحاب هاشم عنه ونجا عبدالله هارباً الى أبيه ، ولم يزل القتال يدور هكذا عنيفاً بين اصحاب الامام وبين أصحاب معاوية وهاشم يزحف باللواء زحفاً ويتقدم الى الامام حتى تشوشت صفوف الطرفين واختلط الناس بعضهم ببعض فلما طلع الفجر رأى الامام وجوهاً غير وجوه أصحابه الذين كان معهم في الليل فقال لهاشم خذ اللواء ياهاشم واسر به نحو القلب ، فوالله مارأيت مثل هذه الليلة فمشى هاشم باللواء حتى ركزه في القلب .

وعظ وارشاد

— ٢١ —

لماذا سمح الخليفة عمر لمعاوية أن يتمتع بكل حريته في امارة الشام مدة خلافته كلها مع انه كان يعامل عماله الآخرين بالحزم ويأخذهم بالشدة ويؤدبهم بين حين وآخر بالنقل والعزل كما عرف ذلك من سيرته ؟

سؤال كثيراً ما القاه الباحثون أمام الناس من دون أن يوفّوه نصيبه فى البحث والتحليل ، ويخرجوا عنه صريحاً بالجواب ، كما تتطلبه منهم أمانة البحث ، ويوجبه عليهم الحق ، ويتوقعه منهم القراء ، ولعل لبعضهم عذراً في ذلك معظمه يعود الى الظروف ، وهو عذر مقبول وان جاء مخالفاً لمهمة الباحثين الأحرار . .

يقول بعض المؤرخين (١) ان الخوف هو الذي منع الخليفة من تأديب معاوية وصدّه عن المؤآخذة والحساب وهو تعليل سقيم لا نستطيع أن نركن اليه مادام الخليفة هو عمر بن الخطاب ، وابن الخطاب فحسب ومادامت درته صاحبة الطول والحول تعنو لها الوجوه وتخضع امامها الجبهات ، وممن كان يخاف

(١) ذهب بعض المؤرخين الى ان الخوف هو الذي منع الخليفة عمر من تأديب معاوية وأوجب كل ذلك التسامح معه وقد تابعهم الباحث عبد المسيح الانطاكى فى ذلك وراح يسف معهم في شرح القصيدة العلوية — ٢٢٩ — ويقول : « وعمر ما كان ينام عن عماله ، وما كان يبقي على واحد منهم اذا بلغه عنه بعض ما كان يبلغه عن معاوية من الترف وجمع المال والظهور بمظهر العظمة ، ولا يتأتى ان يكون عمر قد أغفل أمر معاوية شذوذاً بل بالعكس لا بد انه فكر كثيراً بعزله ولكنه لم يقدم عليه حذراً من حدوث مالا تؤمن مغبته في عزله »

عمر؟ أمن معاوية ؟ أم من قومه بنى أمية ؟ أم من أهل الشام ؟ معاوية أقل وأحقر من أن يخاف منه ـ يرفأ ـ غلام عمر دون عمر نفسه ، وبنو أمية كانوا من الذلة والمسكنة على عهد عمر بحيث كان يسومهم رعاع الناس سوء العذاب ، وأما أهل الشام فقد غلبهم عمر وهم فى أوج قوتهم وعظمتهم فكيف يخافهم وهم أذلاء صاغرين ليس فيهم بعد فتوح الشام من تخشى غائلته أو يخاف شره ، التعليل بالخوف تعليل موهوم لا يثبت للتحليل يدل على غفلة هؤلاء البعض وعدم اطلاعهم فى التاريخ .

والايمان لم يتصف به معاوية طرفة عين أبداً حتى يبرر تسامح عمر مع معاوية وابقائه على الشام لايمانه كل تلك المدة من الزمان ، على ان عمر لم يكن يعتبر الأيمان وراه شرطاً في الامير ، وقد ولى على الكوفة المغيرة بن شعبة مع علمه بفسقه وفجوره كما أخبره هو بذلك في حديثه معه ، يقول الطبرى في تاريخه : لما جاء أهل الكوفة الى عمر يشكون عاملهم ابا موسى الأشعري ويطلبون منه عزله عنهم جزع عمر من كثرة تقلب أهل الكوفة وعدم استقرارهم على أمير ، فخلا في ناحية المسجد ونام فأتاه المغيرة بن شعبة فكلاه حتى استيقظ فأخذ يكلمه المغيرة ويقول :

— ما فعلت هذا ياأمير المؤمنين الا من عظيم فهل نابك من نائب؟

— بجزع ـ وأي نائب أعظم من مائة الف لايرضون عن امير، ولا يرضى عنهم أمير

— فولنى عليهم ياأمير المؤمنين

— وكيف أوليك وأنت فاسق ؟

— فسقي لي وقوتي لك وللمسلمين ، ولتولية رجل قوي مشدد خير من ضعيف مؤمن ، لأن الضعيف المؤمن ايمانه لنفسه وضعفه عليك ، وأما القوي المشدد فان شداده لنفسه وقوته للمسلمين . .

— فانا باعثوك الى الكوفة

هذا هو حديث عمر مع المغيرة يعترف بفسقه ثم يوليه على الكوفة لأن الايمان لم يكن عنده شرطاً في الأمير ، ولسنا نستطيع أن نآخذه على هذا الرأي ما داموا يقولون انه مجتهد له ان يعمل برأيه ولو خالف نص الكتاب وصريح السنة كما عللوا ذلك في تحريم المتعتين .

ورضاء أهل الشام عن معاوية وقبولهم به وان جاز ان يكون مبررا قوياً للخليفة على تسامحه مع معاوية الا أن الخليفة نفسه لم يكن يرى رضاء اهل كل بلد عن أميرهم يستوجب التسامح وابقاء ذلك الأمير على امارته ، يدلنا على ذلك ما كان يفعله مع بقية عماله الآخرين ، فانه كان يجمعهم في كل سنة عنده من دون سابقة شكوى من أهل بلادهم ، ثم يحاسبهم حساب ملك الموت لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها عليهم ثم يناصفهم بالأخير جميع مايملكون ، في حين ان معاوية يلعب بأموال المسلمين ويسرف في المأكل والملبس كثيراً وحسب مايهوى ، ويستقبله في الشام في أحدى سفرات عمر اليها وهو على حد تعبير المؤرخين على الخز برذون في الخز ثياب بعظمة ملوك الروم ، فيغض النظر عمر عنه بمجرد أن يخبره معاوية بأن أهل الشام اعتادوا على مظاهر العظمة ، ولا يستطيع أن يغير ما اعتادوا عليه .

كل الاعذار عن تسامح عمر عن معاوية واهية زائفة لو أردنا أن

نقف منها موقف الصيرفي الناقد ، ونقيسها الى ما اعتاده في سيرته مع بقية العمال ، والسبب الرئيسي على ما أعتقد هو اتحادهما في العاطفة نحو البيت الهاشمي واتفاقهما في الفكرة على بغض الامام ، وبالرغم من حنكة الخليفة عمر وسمو مكانه السياسي فان عواطفه كانت تتغلب عليه دائماً وتميله حيثما تميل ، وما تولية أبي عبيدة على جيوش الشام مع علمه بضعفه وحنكة خالد ابن الوليد العسكرية الا بتأثير تلك العواطف ، وما تحسره عليه قبيل وفاته وعلى سالم مولى أبي حذيفة وقوله أمام الناس : لو كان أبو عبيدة حياً لوليته هذا الأمر ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لسلّمت اليه الخلافة ، ما ذلك كله الا بتأثير تلك العواطف أيضاً ، ثم ما درأ الحد عن المغيرة مع اعتقاده بزناه وتوليته على الكوفة بعد اعترافه بفسقه وفجوره الا لأنه كان صديقه ومن حزبه يؤيده في كل ما يقوم به من أعمال وأقوال .

العاطفة كانت نصب عين عمر ، ليس في ذلك شك عند المنصف المتتبع لأحكام عمر وأقواله ، تضع من تشاء وترفع من تشاء بيدها خير عمر وشره توجهه اين ما تريد وحيثما تهوى وتحب ، فاذا كان معاوية التاجر الأموي الخبيث ، الماهر بسلع الضمائر يدغدغ في نفس عمر هذه العاطفة دائماً ويمدّها من عاطفته الأموية بغضاً وحسداً لأهل بيت النبي فلماذا لا يتسامح معه الخليفة كل ذلك التسامح ويبقيه مدة خلافته على الشام خصوصاً اذا رضي عنه أهل الشام ، وعثمان وان كان اموياً أيضاً له مالأمية من حقدها الموروث لهاشم وأبنائه الا انه كان طيب القلب بعض الشيء قد صهر الاسلام نفسه بتعاليمه فلم يحض من خير عمر الا بمقدار ما تبقى

في نفسه من الحقد الموروث الذي خلّفه له آباؤه الأمويون ، على انه كان فيما يظهر زعيما لا تاجراً ، لم يتعود المساومة في سوق الضمائر والقلوب فلما ساوم عمر على الخلافة غلبه عمر على صفقته فدفع عثمان ثمن هذه الخسارة من دمه الخاص . .

العاطفة هي التي دفعت الخليفة عمر على ابقاء معاوية على الشام ولقد كان لهذا الابقاء أثره الفعال في أهل الشام وساعد معاوية على بث مبادئه السامة الهدامة فى جموعهم حتى اصبحوا وكلهم يعتقد أن الامام علياً لا يصوم ولا يصلي ولا يتقيد بتعاليم الاسلام وكذلك أصحابه من أهل العراق وشيعته من سائر البلدان كفرة يستحقون اللعن ويستوجبون الحرب والقتال ، كان ذلك ثابتا في نفوس أهل الشام ثبات العقيدة في نفوس رعاع الناس فلما كان يوم صفين اعلنوا ذلك بكل صراحة ولقي أصحاب رسول الله في ارشادهم ووعظهم وردهم عن هذه العقيدة في الامام واصحابه كل مقاومة وبلاء . .

هذا فتى شاب من أهل الشام يبرز فى صفين بين الصفين وهو يرتجز ويقول :

انا ابن أرباب الملوك غسان والدائن اليوم بدين عثمان
انبأنا اقوامنا بما كان ان عليا قتل ابن عفان

ثم يشد على أهل العراق يضربهم بسيفه وهو يلعن الامام ويشتمه ويسهب في ذمه ويرميه بكل نقيصة ، فيراه صاحبنا هاشم فيعجب من شجاعته ويرق على شبابه من قتله ويعلم بأنه مخدوع غره معاوية بكل

ما كان يفعل ويقول فيتقدم اليه ناصحا يعضه ويرشده ويقول :

— اي هذا الشاب على رسلك ، انّ هذا الكلام بعده الخصام ، وان هذا القتال بعده الحساب ، فاتق الله فأنك راجع الى ربك فسائلك عن هذا الموقف وما اردت به

— بحماس وحزم ـ فأنى اقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي وانكم لا تصلون ، واقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وانتم وازرتموه على قتله

— بنصح ـ وما أنت وابن عفان ، انما قتله اصحاب محمد وقراء الناس ، حين أحدث احداثاً وخالف حكم الكتاب ، وأصحاب محمد هم أصاب الدين ، وأولى النظر في أمور المسلمين ، وما اظن أن أمر هذه الامة ولا امر هذا الدين عناك طرفة عين قط

— يصيح ببرائة الطفل ـ اجل ، أجل ، والله لا أكذب ، فأن الكذب يضر ولا ينفع ، ويشين ولا يزين

— ان هذا الأمر لا علم لك به ، فخله واهل العلم به

— بعد تأمل قليل ـ اظنك والله قد نصحتني

— وأما قولك ان صاحبنا لا يصلي ، فهو اول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأفقه في دين الله ، واولاه برسول الله ، واما من ترى معه فكلهم قارئ الكتاب ، لا ينامون الليل تهجدا ، فلا يغررك عن دينك الاشقياء المغرورون

— ياعبدالله اني لاظنك امرأ صالحاً ، واظنني مخطئا آثما ـ ثم

تأخذه الأفكار ويحيط به الندم على ما فرط منه في جنب الامام ويرفع رأسه يسئل هاشماً ويقول ـ اخبرني هل تجد لي من توبة

— بكل تأكيد ـ نعم ، نعم ، تب الى الله يتب عليك ، فانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ويحب التوابين ويحب المتطهرين

— ياعبد الله جزاك الله خير الجزاء على ما نصحتني به

ثم يلوي عنان جواده ويخرج من حومة الميدان يعتزل القتال فيناديه أهل الشام من هنا وهناك يقولون له بلهجة واحدة ، خدعك ، العراقي ، خدعك العراقي ، فيجيبهم وهو سائر في طريقه يقول لهم ، لا ولكن نصحني العراقي

هذه صورة من تأثير معاوية على أهل الشام بدعايته الأموية ضد البيت الهاشمي ظهرت على لسان هذا الشاب في ساحة صفين ، ولها أمثال كثيرة ونضائر متعددة ظهرت أيضاً في ذلك اليوم على لسان الكثيرين من أهل الشام المغرورين ، والتبعة في كل ذلك على الخليفة عمر بن الخطاب لأنه هو الذي مهد الطريق لمعاوية في ذلك بابقائه على الشام مدة خلافته كلها وحرضه بتسامحه معه على تلقين أهل الشام كل تلكم المباديء المسمومة الهدامة وتربيتهم على بغض الامام والعداوة لأهل بيت النبي حتى وقعت حرب صفين وسالت فيها دماء الأبرياء كالأنهار

الشهادة

- ٢٢ -

أهل الشام قوم طبع الله على قلوبهم وختم سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم فظلوا في طغيانهم يعمهون ، هذا ذو الكلاع الحميري زعيم أهل الشام وعابدهم والمشهور بالخير فيهم يعود الى بغيه بعد أن يتضح له الحق ، وينحرف عن جادة السداد ، والطريق أمامه مستقيمة ينيرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمشاعلهم الوهاجة يهدون اليها الناس ولكن ذا الكلاع الحميري ممن قد أظله الله ومن يظلل الله فلا هادي له وإن وضح الحق أمامه ، واستنار له السبيل .

وماذا بعد أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصريحة الواضحة لمن يدعي الاسلام ويريد أن يهتدي بهداه ، وهل حجة هناك أقوى من السنة المقدسة ، وقد علم ذو الكلاع أن النبي يقول : « يلتقي أهل الشام وأهل العراق ، وفي احدى الكتبتين الحق وامام الهدى ومعه عمار بن ياسر » ثم يرى بعينيه أهل الشام من جهة ، وأهل العراق من الجهة الاخرى ومعهم عمار بن ياسر ومع هذا كله يبقى مصراً على رأيه في صفوف أهل الشام يدافع بسيفه عن الباطل .

يقول أبو نوح الحميري : بينما أنا في خيل علي واذا برجل من أهل الشام ينادي ويقول : من دل على الحميري ، فدنوت منه أقول : هذا الحميري فأيهم تريد .

— اريد الكلاعي أبا نوح .

— قد وجدته فمن أنت ؟

— أنا ذو الكلاع فسر الي .

— وما شأنك ؟

— لي اليك حاجة .

— معاذ الله أن أسير اليك إلا فى كتيبة .

— بلى فسر، فلك ذمة الله وذمة رسوله وذمة ذي الكلاع حتى ترجع الى خيلك فانما دعوتك احدثك حديثاً حدثناه عمرو بن العاص قديماً في امارة عمر بن الخطاب .

— وما هو ؟

— حدثنا عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يلتقي أهل الشام وأهل العراق وفى احدى الكتبتين الحق وامام الهدى ومعه عمار بن ياسر .

— لعمر الله إنه فينا

— أجادٌ هو فى قتالنا

— نعم ورب الكعبة ، لهو أشد على قتالكم مني ، ولو ددت انكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك وأنت ابن عمي .

— ويلك علام تتمنى ذلك ، والله ما قطعتك فيما بيني وبينك ، وان رحمك لقريبة ، وما يسرني أن أقتلك .

— ان الله قطع بالاسلام أرحاماً قريبة ، ووصل به أرحاماً

متباعدة ، واني لقاتلك أنت وأصحابك ، ونحن على الحق ، وأنتم على الباطل مقيمون مع أئمة الكفر ورؤوس الأحزاب '

— فهل تستطيع أن تأتي معي فى صف أهل الشام فأنا جارٌ لك من ذلك ألا تقتل ولا تسلب ولا تكره على بيعة ، ولا تحبس عن جندك ، وإنما هي كلمة تبلغها عمرو بن العاص لعل الله أن يصلح بذلك بين هذين الجندين ويضع الحرب والسلاح .

— اني أخاف غدراتك وغدرات أصحابك .

— أنا لك بما قلت زعيم .

— اللهم انك ترى ما أعطاني ذو الكلاع ، وأنت تعلم ما في نفسي فأعصمني واختر لي وانصرني وادفع عني .

يقول : أبو نوح فسرت معه أتخلل صفوف أهل الشام حتى وقفنا على عمرو بن العاص وأخبرته بذلك فطلب عمرو مني أن أجمعه بعمار فرجعت الى عسكرنا فوجدت عماراً قاعداً مع جماعة فيهم مالك الأشتر وهاشم بن عتبة المرقال وإبنا بديل وغيرهم فأخبرته الخبر ودعوته الى مواجهة عمرو فقام عمار فركب جواده وركب معه هاشم وبقية جماعته وساروا نحو أهل الشام فأقبل عليهم عمرو بن العاص ومعه ذو الكلاع الحميري وجماعة من أهل الشام فتكلم عمرو وقال فيما قال : يا أبا اليقظان إنما جئت لأني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم ، اذكرك الله إلا كففت سلاحهم ، وحقنت دماءهم ، وحرّضت على ذلك ، فعلام تقاتلنا ؟ أو لسنا نعبد إلهاً واحداً ونصلي الى قبلتكم ، وندعو دعوتكم ، ونقرأ كتابكم ،

ونؤمن برسولكم ، فقال له عمار : الحمد لله الذي أخرجها من فيك ، انها لي ولأصحابي القبلة ، والدين ، وعبادة الرحمن ، والنبي صلى الله عليه وآله ، والكتاب ، من دونك ودون أصحابك ، الحمد لله الذي قرّك لنا بذلك ، وجعلك ضالاً مضلاً ، لا تعلم هادٍ أنت أم ضال ، وجعلك أعمى ، وسأخبرك علام قاتلتك عليه أنت وأصحابك . أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن اقاتل الناكثين وقد فعلت ، وأمرني أن أقاتل القاسطين فانتم هم ، وأما المارقون فما أدري أدركهم أم لا ، أيها الأبتر ، ألست تعلم ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانا مولى الله ورسوله وعلي بعده ، وليس لك مولى .

جرى كل ذلك وذو الكلاع الحميري يسمع ويرى ولكنه زاغ عن الحق وجانب الصواب ونفخ الشيطان فيه من روحه فخرج امام أهل الشام مدججاً بالحديد شاهراً سلاحه في وجه أصحاب الامام يعاجلهم مبكراً في القتال ، فلما رأى ذلك الامام أقبل على صاحبنا هاشم فدفع اليه لوائه الأعظم الخاص وأخذ يحده على القتال ويقول : أيا هاشم حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ، فأجابه هاشم وقد تناول منه اللواء واستعد للهجوم يقول : والله يا أمير المؤمنين لأجهدن على ألا ارجع اليك ابدا ، فقال له الامام يزيد من حدته ويثير فيه عوامل البطولة والنخوة : إن بأزائك ذا الكلاع الحميري وعنده الموت الأحمر ، فأجابه هاشم بلغة البطولة وتقدم الى الميدان يقتحم صفوف أهل الشام يرقل بالراية ارقالاً ،

فتقهقر امامه أهل الشام فلما رأى ذلك معاوية أخـــذ يسأل أصحابه مدهوشاً ويقول : من هذا المقبل ، فقيـــل له هاشم المرقال ! فغصّ بريقه قائلا : أعور بني زهرة قاتله الله ، ثم أمر حماة أصحابه أن يتقدموا له ، فتقدم له أبطال الشام وتقدم لهم هاشم بأصحابه فمـــا زال يقاتلهم قتالا شديداً حتى أمسى عليهم المساء وكلّ أصحابه من الحرب فأخذ هاشم يدور فى النـاس يحرضهم ويقول : ألا من كان يريد الله والدار الأخرة فليقبل ، فاقبل اليه جماعة من الناس فشدّ بهم على أهل الشام ، ولكن أهل الشام صمدوا في وجهه وثبتوا بتحريض معـاوية فى مكانهم فالتفت الى أصحابه يخاف الوهن عليهم يقول : لا يهولنكم ما ترون من صبرهم ، فوالله ما ترون منهم الا حمية العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها وانهم لعلى الضـــلال ، وانكم لعلى الحق ، يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا ، وامشوا بنـــا الى عدونا على توئدة رويداً ، ثم تآسوا وتصابروا ، واذكروا الله ولا يسلم رجل منكم أخاه ، ولا تكثروا الالتفات ، واصمدوا صمدهم ، وجالدوهم محتسبين ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، ثم تقدم أمامهم باللواء وهو يقول :

أعور يبغي نفسه خـلاصا ... مثـل الفنيق لابساً دلاصا
قد جرّب الحرب ولا أناصا ... لا دية يخشى ولا قصـاصا
كل امرء وإن كبا وحاصا ... ليس يرى من موته مناصا

وهكذا أخذ يشق صفوف أهل الشام بسيفه ويتقـــدم الى الامام حتى توسط صفوفهم واشاع فيهم الجراح والقتل فتقدم اليه صاحب لواء

ذي الكلاع الحميري مستميتاً يرتجز ويقول :

يا أعور العين وما بي من عَوَرْ اثبت فاني لست من فرعي مضر
نحن اليمانون وما فينا خور كيف ترى وقع غلام من عُذَر
ينعى ابن عفان ويلحى من غدر سيان عندي من سعى ومن أمر

فتقدم اليه هاشم وبادره بطعنة نجلاء منكرة اخرج السنان بها من ظهره وتقدم الى الامام فبرز اليه بطل آخر معروفاً بالبطولة في أهل الشام فألحقه بصاحبه ، وهكذا ، وهكذا يتقدم ويبارز ويطعن ويجندل حتى قتل عشرة من خيرة أبطال أهل الشام ، ثم حسر عن رأسه وذراعيه وتقدم نحو معاوية فاستنجد معاوية بقبيلة تنوخ وكانت مشهورة بالشدة والبأس فتقدمت تنوخ الى هاشم فقارعهم بسيفه مقارعة عنيفة فغافلة أحدهم وضرب بسيفه على رجله فبترها فجعل هاشم يقاتل من دنا منه وهو يارك يرتجز ويقول :

الفحل يحمي شلوه معقولا

ويحمل عليه الحارث بن المنذر التنوخي لعنه الله فيطعنه برمحه في بطنه فيشقها شقاً بليغاً فيقبض هاشم بطنه باحدى يديه وعلى اللواء بالاخرى وجعل يبدي امام أهل الشام مقاومة وشدة ثم التفت الى اصحابه يطمنهم ويقول : أيها الناس اني رجل ضخم ، فلا يهولنكم مسقطي إن أنا سقطت ، فانه لا يفرغ مني أقل من نحر جزور حتى يفرغ الجزار من جزرها ، وجاءه رسول الامام يأمره بالتقدم فقال هاشم للرسول : انظر الى بطني فلما رفع يده عن بطنه خرجت امعاءه فسقط ، فجزع عليه

الناس جزعاً شديداً ، فتناول ابنه عبدالله الراية وأقبل على الناس بوجهه يصبرهم ويقول : أيها الناس ، إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذين قدّر أرزاقهم ، وكتب آثارهم ، واحصى أعمالهم ، وقضى آجالهم فدعاه ربه الذي لا يُعصى فأجابه ، وسلّم الأمر لله ، وجاهد في طاعة ابن عم رسول الله ، وأول من آمن به ، وأفقههم في دين الله ، المخالف لأعداء الله المستحلّين ما حرّم الله ، الذين عملوا في البلاد بالجور والفساد واستحوذ عليهم الشيطان فزيّن لهم الاثم والعدوان ، فحق عليكم جهاد من خالف سنّة رسول الله ، وعطّل حدود الله ، وخالف أولياء الله ، فجودوا بمهج أنفسكم في طاعة الله في هذه الدنيا ، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى ، والملك الذي لا يبلى ، فلو لم يكن ثواب ولا عقاب ، ولا جنة ولا نار لكان القتال مع علي أفضل من القتال مع معاوية ابن أكالة الأكباد فكيف وأنتم ترجون ما ترجون » .

هذا هو والله الايمان الصحيح ، وهذه هي التضحية في سبيل الله بكل معانيها ، اسمعه كيف يقول وهو شاب في ريعان العمر وغضارة الصبا ، قد بسطت له الحياة كفيها باسمة تستقبله بكل سرور كما تستقبل أمثاله من الشباب النبلاء يقول : فجودوا بمهج أنفسكم في طاعة الله في هذه الدنيا ، لك الجود يا سيدي ولسيد أبيك من قبل إذ بذلتما نفسيكما في طاعة الله وفي سبيل مرضاته وجدتم بها ، وهل الجود يا سيدي إلا هذا ، جزاكما الله عن الاسلام وأهله خير الجزاء وأوفاه ، ثم تعال معي أيها القارىء الى بقية كلماته لنلمس السمو النفسي فيها لمساً ، ونرى في

طياتها الحر الكريم الذي يطلب الحق لمحض الحق وينكر الباطل للبـاطل من دون ملاحظة عقاب أو ثواب : تعـال معي نرى كل ذلك فى كلماته حيث يقول : فلو لم يكن ثواب أوعقاب ، ولا جنة ولا نار لكان القتال مع علي أفضل من القتال مع معاوية ابن أكالة الأكبـاد ، ثم لا عجب بعد هذا في كل ما تسمع وترى فهو ابن صاحب رسول الله البطل المرقال وسليل تلميذ سيد الوصيين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام واذا ذكرت تلاميذ الامام فقد ذكرت معهم كل ما فى هذا الوجود من كمال وجمال .

حضر عبدالله بن سيدنا هاشم ذات يوم مجلس معـاوية ، فالتفت معاوية يسأل من في المجلس ويقول : من يخبرني عن الجود والنجدة ، فبادره عبدالله بالجواب يقول : « أما الجود فابتذال الأموال ، والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجرءة على الأقدام ، والصبر عند ازورار الأقدام ، وأما المروءة فالصلاح فى الدين ، والاصلاح للحال ، والمحاماة عن الجار » فهذه الكلمات الذهبية بقدر ما تدلنا على جلالة عبدالله ، وسمو نفسيته الكريمة التي لا تعرف الجود إلا بالعطية قبل السؤال ، ولا تعلم المروءة إلا في الصلاح في الدين ، والاصلاح للحال ، والمحـاماة عن الجار ، تكشف لنا هذه الكلمات — بقدر ما تدلنا على جلالة صاحبها — جانباً خطيراً فى صاحبنا المرقال كان له كل الفضل فى توجيه عبدالله هذا التوجيه الصحيح وتعبيد الطريق أمامه الى حيث الرقيّ والكمال .

التوجيه الصحيح والتربية الدينية السامية التي كان هاشم يتعـاهد

ابنه عبدالله عليها بما وسعه من الوسائل هي التي حدت بعبدالله يوم صفين أن يفعل ويقول كلما فعل وقال ' وهي التي دفعته أن يتقدم باللواء بعد أبيه الى قتال أهل الشام ، وإذا كان الدفاع عن الحق والمبادرة الى قتال من يريد أن يطفىء نور الله قد أعجله عن التريث قليلا عند مصرع أبيه العظيم ليغسل بدموعه ما جمد عليه من الدماء فانه لم ينس وهو يقاتل أهل الشام أن ينفثها زفرات محرقة يكاد قلبه يسيل معها حينما أخذ يرتجز ويقول :

أهاشم بن عتبة بن مالك ... اعزز بشيخ من قريش هالك
تخبطه الخيلات بالسنابك ... في أسود من نقعهن حالك
ابشر بحور العين في الارائك ... والروح والريحان عند ذلك

عبد الله و معاوية

— ٢٣ —

ويملأ معاوية نفسه بالحقد على عبدالله بن هاشم بما قام به من أفعال وأقوال فى ساحة صفين ، ولأنه سليل البطل المرقال الذي أراه الموت عياناً مرة بعد مرة في قتال أهل الشام وكلما اخذ الراية وزحف الى الميدان ، يملأ معاوية نفسه بالحقد ويشحنها بالنقمة عليه شحناً ، فينادي مناديه بعد صلح الامام الحسن عليه السلام يعلن عن حقد معاوية ويقول : أمن الأسود والاحمر بأمان الله الا عبدالله بن هاشم بن عتبة ، ثم راح يطلبه طلباً ملحاً ويبحث عنه بشدة فى جميع البلدان ويجعل لمن يدله عليه جعلا جسيما يستهوي النفوس ويخلب الالباب ، فيدله رجل من أهل البصرة على مكانه فيكتب معاوية الى عامله بالبصرة زياد بن أبيه يأمره أن يجد فى البحث عن عبدالله ويقول : « أما بعد ، فاذا أتاك كتابي هذا فاعمد الى حي بني مخزوم ففتشه داراً داراً ، حتى تأتي الى دار فلانة المخزومية ، فاستخرج عبدالله بن هاشم المرقال منها ، فاحلق رأسه ، والبسه جبة شعر وقيده ، وغل يده الى عنقه ، وأحمله على قتب بعير بغير وطاء ، وأنفذ به الي » فتحرك زياد من حين وصول الكتاب اليه وسار في شرطته الى حي بني مخزوم وأحاطه من كل جهة ومكان وأخذ يفتش الدور واحدة واحدة حتى دخل دار الامرأة المخزومية واستخرج منها عبدالله ، فأوثقه كتافا وقيد رجليه وغل يده الى عنقه

والبسه جبة شعر خشنة جداً ثم سيّره الى معاوية مخفوراً على قتب بعير بغير وطاء يرقل به ارقالا ويتله في عدوه أعنف التل حتى دخل على معاوية منهوكا قد تهرّت لحم فخذيه وتغيرلونه وأخذ الدم يسيل من جميع جوانبه .

وكان معاوية يولم في كل يوم جمعة وليمة فخمة يجمع عليها أشراف قريش وزعماء أهل الشام ، فاتفق ان دخل عليه عبدالله في يوم جمعة وهو جالس بين هؤلاء من الناس فلما نظر اليه معاوية عرفه ولم يعرفه بقية جماعته لتغير وجه عبدالله من النصب فالتفت الى عمرو بن العاص يسئله ويقول :

معاوية — ياابا عبدالله ، أتعرف هذا الفتى ؟

عمرو — يحدق النظر في عبدالله جيداً ويطيله فلم يعرفه — لا

معاوية — هذا ابن الذي كان يقول في صفين :

أعور يبغي أهله محـــلا قد عالج الحياة حتى ملا

لا بد أن يفلّ أو يُفلا

عمرو — بفرح وسرور — وانه لهو ، هذا المحتال ابن المرقال المغتر المفتون فدونك دونك ياأمير المؤمنين ، الضب الضب ، فاشخب أوداجه واقتله ، فان العصا من العصية ، وانما تلد الحية حية ، وجزاء السيئة سيئة مثلها ولا ترجعه الى أهل العراق ، فانهم أهل فتنة ونفاق ، وله مع ذلك هوى برديه ، وبطانة تغويه ، فوالذي نفسي بيده ، لئن افلت من حبائلك ليجهزن اليك جيشاً ، تكثر صواهله لشر يوم لك

عبدالله — بغير مبالاة — ماأنا بأول رجل خذله قومه ، وأدركه يومه

معاوية — تلك ضغائن صفين وما جنى به عليك أبوك

عمرو — محرضاً بحماس ـ أمكني منه ياأمير المؤمنين ، أشخب أوداجه على اثباجه

عبدالله — الى عمرو — يابن الأبتر ، هلا كانت هذه الحماسة والشجاعة عندك يوم صفين ، ونحن ندعوك الى البراز ، وقد ابتلت اقدام الرجال من نقيع الجريال ، وقد تضايقت بك المسالك ، وأشرفت فيها على المهالك ، تلوذ بشمائل الخيل كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء ، أما انه إن قتلني قتل رجلا كريم المخبر ، حميد المقدرة ، ليس بالحبس المنكوس ، ولا الثلب المركوس

عمرو — بمداورة وخبث — دع كيت وكيت ، فقد وقعت بين لحيي لهزم ، فروس للاعداء ، يسعطك اسعاط الكودن الملجم

عبدالله — أكثر إكثارك ، فاني أعلمك بطراً في الرخاء ، جباناً في اللقاء ، هيابة عند كفاح الأعداء ، ترى أن تقي مهجتك بأن تبدي سوأتك أنسيت يوم صفين وأنت تدعى الى النزال ، خوفاً من أن يغمرك رجال لهم أبدان شداد ، وأسنة حداد ، ينهبون السرج ، ويذلون العزز

عمرو — يخفي خجله مكابراً — لقد علم معاوية ، اني شهدت تلك المواطن ، فكنت فيها كمدرة الشوك ، ولقد رأيت أباك في تلك المواطن تخفق أحشاؤه ، وتنق أمعاؤه

عبدالله — يثور عند ذكر أبيه غاضباً — أما والله لو لقيك أبي في ذلك المقام ، لارتعدت منه فرائصك ولم تسلم منه مهجتك ، ولكنه

قاتل غيرك فقتل دونك ، وأيم الله لولا مكانك من معاوية ، لنشبت لك مني خافية أرميك من خلالها أحدّ من وقع الأشافي ، فانك لا تزال تكثر في هوسك ، وتخبط في دهشك وتنشب في مرسك تخبط العشواء في الليلة الحندس الظلماء

الحاضرون — ينظر بعضهم الى بعض ويبتسمون

عمرو — يطأطأ رأسه الى الأرض بذلة

معاوية — الى عبدالله يتصنع الغضب — ألا تسكت لا أمّ لك

عبدالله — هانجاً — يا ابن هند ، أتقول لي هذا ، والله لئن شئت لأعرقن جبينك ، ولأقيمنك وبين عينيك وسم يلين له اخدعاك ، أبأ كثر من الموت تخوفني ؟

معاوية — يتخوف العاقبة فيتظاهر بالهدوء ويقول بلطف — أوتكف يا ابن أخي

عبدالله — يستعد للحديث

معاوية — يضطرب ويلتفت الى حراسه قائلا — خذوه الى السجن

فيسير الحراس بعبدالله الى السجن ويودعونه في غياهبه فيكتب عمرو ابن العاص الى معاوية يحرضه على قتل عبدالله ويستجعله في ذلك ويقول :

امرتك أمراً حازماً فعصيتني وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
وكان ابوه يامعاوية الذى رماك على حرب بحز الغلاصم
فقتّلنا حتى جرت من دمائنا بصفين امثال البحور الخضارم
وهذا ابنه والمرء يشبه أصله ستقرع إن ابقيته سن نادم

فلما قرأ معاوية هذه الأبيات بعثها الى عبدالله في السجن فأجابه عبدالله يقول :

معاوي ان المرء عمرواً أبت له ... ضغينة صدر ودّها غير سالم
يرى لك قتلي يابن حرب وانما ... يرى مايرى عمرو ملوك الأعاجم
على انهم لا يقتلون اسيرهم ... اذا كان فيه منعة للمسالم
وقد كان منا يوم صفين نفرة ... عليك جناها هاشم وابن هاشم
قضى الله منها ماقضى ثم انقضى ... وما ما مضى الا كأضغاث حالم
هي الوقعة العظمى التي تعرفونها ... وكلّ على ما قد مضى غير نادم
فان تعف عني تعف عن ذي قرابة ... وإن تر قتلي تستحل محارمي

هكذا يجب أن يكون شأن الرجال الأحرار ، لا يستكينون للبلاء ولا يخورون أمام الموت ، ولا ينكرون مبادءهم حتى فى أحرج ساعة من حياتهم ، اسمعه كيف يقول بشجاعة ـ وكلٌ على ماقد مضى غير نادم ـ وعلام يندم عبد الله ، أعلى قتال معاوية بن هند ، الأموي الباغي الخبيث الذي تواترت الأخبار بكفره وزندقته ، كيف يندم على قتاله وهو يسمع رجلاً من أهل الشام يحدثه ويقول : سمعت أبي يقول : قال رسول لله صلى الله عليه وآله وسلم : « شرّ خلق الله خمسة ، ابليس ، وابن آدم الذي قتل أخاه ، وفرعون ذوالأوتاد ، ورجل من بني اسرائيل ردّهم عن دينهم ، ورجل من هذه الامة يبايع على كفره عند باب لد ، فلما رأيت أنا معاوية يبايع عند باب لد ذكرت قول رسول الله فلحقت بعلي وكنت معه » معاوية زنديق كافر أغلب المسلمين حينذاك كانوا

يعرفونه تماماً ويتحدثون بما جاء عن رسول الله في حقه ، عبدالله بن عمر يقول : كنت جالساً يوماً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فطلع علينا أبو سفيان وهو راكب ومعاوية وأخوه أحدهما قائد والآخر سائق فلما نظر اليهم رسول الله قال : اللهم العن القائد والسائق والراكب وسمعت رسول الله ايضاً يقول : « يموت معاوية على غير الاسلام » وفى رواية اخرى : « يموت معاوية على غير ملّتي » هـذا هو معاوية في نظر رسول الله فاذا رآه عبد الله قد خرج على أمير المؤمنين عروة الوثقى وامام المتقين الهداة فكيف ينـدم على قتاله وإن وقع فى حباله وبين مخالبه ، يقول الرواة : فلما قرأ معاوية هذه الأبيات أطرق طويلا حتى ظنّ انه لن يتكلم ثم انشأ يقول :

أرى العفوعن عليا قريش وسيلة ... الى الله فى اليوم العبوس القماطر
ولست أرى قتلي فتى ذا قرابة ... له نسب في حي كعب وعامر
بل العفوعنه بعدما خاب قدحه ... وزلت به إحدى الجدود العواثر
وكان ابوه يوم صفين محنقاً ... علينا فأردته رماح بحابر

ثم دعا بعبدالله اليه من السجن فلما استقر به المكان اخذ يلطف له فى الحديث ويسئله برفق يقول :

— أتراك فاعلا يا ابن أخي ما قال عمرو من الخروج علينا

— بكل صراحة — لا تسل عن عقيدات الضمائر ، لاسيما اذا ارادت جهاداً فى طاعة الله

— اذن يقتلك الله كما قتل اباك

— بلهفة — ومن لي بالشهادة

— يعود الى التلطف في الحديث ويجزل عليه الهبات والعطايا

— هادئا بغير احتفال

— أتعطيني إن انا عفوت عنك موثقاً من الله ان لا تساكنني في الشام لئلا تفسد عليّ أهلها

— قد فعلت

فيطلقه معاوية ويعفو عنه فيسير عبدالله من الشام كما أعطى مواثيقه لمعاوية ويقبع فى محراب عبادته متوجهاً بروحه الى الله

رثاء ونأبين

- ٢٤ -

يقف امير المؤمنين علي عليه السلام على قائده العظيم قتيلا في ساحة صفين بين عصبة من أسلم قد صرعوا حوله فيملكه الغم ويسوده الحزن ويرفع صوته بين أصوات من اجتمع عليه من الناس يذرفون الدموع جزعاً لفقده ويندبون فيندبه ويقول :

جزى الله خيراً عصبة أسلمية ... صباح الوجوه صُرّعوا حول هاشم
يزيد وعبدالله بشر ومعبد ... وسفيان وإبنا معبد ذي المكارم
وعروة لا يبعد ثناه وذكره ... اذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم

ويقول أبو الطفيل عامر بن واثلة الصحابي الجليل :

يا هاشم الخير جزيت الجنه ... قاتلت في الله عدو السنه
والتاركي الحق وأهل الظنه ... أعظم بما فزت به من منّه
صيرني الدهر كأني شنّه ... ياليت أهلي قد علوني رنّه
من حوبة وعمة وكنّه

ويقول جريش السكوني :

معاوي ما أفلتّ إلا بجرعة ... من الموت رعباً تحسب الشمس كوكبا
نجوت وقد أدميت بالسوط بطنه ... أزوماً على فأس اللجام مشذّبا
فلا تكفرنه واعلمن أن مثلنا ... الى جنبها ما دارك الجري أو كبا
فإن تفخروا يا بني بديل وهاشم ... فنحن قتلنا ذا الكلاع وحوشبا

وانهما ممن قتلتم على الهدى ... ثواء فكفوا القول ننسى التحوّبا
فلما رأينا الأمر قد جدّ جده ... وقد كان مما يترك الطفل أشيبا
صبرنا لهم تحت العجاج سيوفنا ... وكان خلاف الصبر جدعاً موّعبا
فلم نلف فيها خاشعين اذلة ... ولم يك فيها حبلنا متذبذبا
كسرنا القنا حتى اذا ذهب القنا ... صبرنا وفلّلنا الصفيح المجرّبا
فلم نر في الجمعين صادف خدّه ... ولا ثانياً من رهبة الموت منكبا
ولم نر إلا قحف رأس وهامة ... وساقا ظنوناً أو ذراعاً مخضبا

ويقول ابن عدي بن حاتم :

أبعد عمار وبعد هاشم ... وابن بديل فارس الملاحم
نرجو البقاء مثل حلم الحالم ... وقد عضضنا أمس بالابهم
فاليوم لا نقرع سن نادم ... ليس امرؤ من يومه بسالم

ويقول الشني :

أتانا امير المؤمنين فحسبنا ... على الناس طراً أجمعين بها فضلا
على حين ان زلت بنا النعل زلة ... ولم تترك الحرب العوان لنا محلا
وقد أكلت منا ومنهم فوارساً ... كما تأكل النيران ذا الحطب الجزلا
وكنا له في ذلك اليوم جنة ... وكنا له من دون انفسنا نعلا
فأثنى ثناءً لم ير الناس مثله ... على قومنا طراً وكنا له أهلا
ورغّبه فينا عدي بن حاتم ... بأمر جميل صدّق القول والفعلا
فان يك أهل الشام أودوا بهاشم ... وأدوا بعمار وأبقوا لنا ثكلا
فهذا عبيدالله والمرء حوشب ... وذو كلع أمسوا بساحتهم قتلا

ويقول عبدالله ابن أبي معقل الأنصاري في قصيدته الطويلة :

وإن تقتلوا إبني بديل وهاشماً ... فنحن قتلنا ذا الكلاع وحوشبا
ونحن تركنا حميراً في صفوفكم ... لدى الموت صرعى كالنخيل مشذبا
ونحن تركنا عند مختلف القنا ... أخاكم عبيدالله لحماً ملحبا
بصفين لما ارفضّ عنه صفوفكم ... ووجه ابن عتّاب تركناه ملغبا
وطلحة من بعد الزبير ولم ندع ... لضبة في الهيجا عريفاً ومنكبا(١)
ونحن أحطنا بالبعير وأهله ... ونحن سقينا كم سماما مقشبا

رحمك الله يا هاشم ، رحمك الله يا بطل الاسلام ، لقد عشت سعيداً تجاهد طيلة حياتك في سبيل الله ، ومت شهيداً تحت راية خير الوصيين علي بن أبي طالب أمام الهدى ، فجزاك الله خير جزاء وأوفاه ، وحشرك مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومع عترته وأهل بيته الميامين الأبرار .

---

(١) العريف : النقيب ، وهو دون الرئيس . والمنكب كمجلس نائب العريف وعونه ، وقال الليث : رأس العرفاء .

خلاصة البحث

— ٢٥ —

من مجموع ما قرأناه علمنا أن لصاحبنا هاشم المرقال شخصية اسلامية فذة لامعة ، كانت تتمتع بأسمى معاني الشخصية ، وتحتل مكاناً راقياً في المجتمع الاسلامي ، يقول زفر بن الحارث ، كنت رسول معاوية بن أبي سفيان الى ام المؤمنين عائشة بعد وقعة صفين ، فلما دخلت عليها واخبرتها بذلك جعلت تسألني اول ما سألتني به عمن قتل من الزعماء والأشراف وتقول :

— من قتل من الناس

— عمار بن ياسر

— ذاك الرأس يتبعه الناس لدينه ، ومَن

— هاشم بن عتبة ابن ابي وقاص

— الأعور

— نعم ، نعم

— ذاك رجل ما كادت تزل دابته

فذكر زفر هاشماً في مجلس عائشة بعد ذكره لعمار بن ياسر في مقدمة من قتل من الزعماء والأشراف من أهل الشام والعراق في ساحة صفين على كثرتهم وسمو مكانتهم دليل على شخصية هاشم الجبارة وسمو مكانتها الاجتماعية حينذاك ، ثم في تكرير السؤال من عائشة وذكرها للصفة

التي كان يعرف بها هاشم تأكيداً في الاستفهام لدليل آخر على ما ذكرناه ، على أنا قد قرأنا في الفصول المتقدمة من هذا الكتاب قيادته لجحفل المشاة في اليرموك وتأميره من قبل الخليفة عمر على جيش العراق الذي سار من الشام الى القادسية والذي سار ايضاً من المدائن لفتح جلولاء ونواحيها ، ثم في نيابته عن سعد نيابة مطلقة في جميع الأفعال والأقوال ، كل ذلك ليدلنا على مدى هذه الشخصية وما كانت تتمتع به من الشهرة والسمو فضلا عن شجاعته وبطولته .

وللشجاعة في صدر الاسلام ، عصر الجهاد والفتوح ، مكانتها السامية في المجتمع الاسلامي ، ومنزلتها الخاصة في النفوس ، ولعلها كانت من أعلى مقاييس الشخصية ، وأرجح معيار لميزان العظماء من الناس ، ومن هنا نجد الشعر الاسلامي حافلا بهذا اللون من الفخر ، وهاشم كما قرأته في جميع ما حضره من الوقائع بهمة من البهم على حد تعبير القدماء كان له الفضل الأول في دحر جيوش الروم وفارس ، والنصيب الوافر في كل ما فتح الله على المسلمين في ميادين الشام والعراق ، وقد قرأت في صفين صولاته وجولاته في قتال أهل الشام ورأيته كيف كان يحمل لواء أهل العراق الأعظم الذي هو مدار الحرب ويرقل به راكضاً الى الأمام إرقالا في مشتبك الرماح وعلى شفار المهندة الصفاح ، حتى ضج منه أهل الشام واضطرب معاوية كثيراً وكلما لاح له خياله في الميدان ، وحسبك أن تنظر الى أهل الشام بعد مقتله لترى وجوههم طافحة بالأمن والسرور يتباشرون بقتله ويتغنون بالقصائد والأشعار في حفل من الفرح والابتهاج

بعد أن كان الغم يغمرهم غمراً من شدّة هاشم وقسوته ويحوطهم الخوف والفزع من كل جهة ومكان ، واليك بعض ما تغنى به أهل الشام بعد مقتله دليلا على بطولته وشجاعته ، تقول امرأة من أهل الشام :

لا تعدموا قوماً أذاقوا ابن ياسر ... شعوباً ولم يعطوكم بالخزائم
فنحن قتلنا اليثربي بن محصن ... خطيبكم وابني بديل وهـاشم

ويقول عمرو بن العاص :

لعمري لقد لاقت بصفين خيلنا ... سميراً فلم يعدلن عنه تخوفا
قصـدت له في وائل فسقيته ... سحام زعاف يترك اللون أكلفا
فما جبنت بكر عن ابن معمر ... ولكن رجا عود الهوادة فانكفا
وخاف الذي لاقى الهجيمي قبله ... تفرّق عنه جمعه فتُخطّفا
ونحن قتلنا هاشماً وابن ياسر ... ونحن قتلنا ابني بديل تعسفا

وخطب معاوية أصحابه وقد جزعوا من كثرة من قتل منهم فأخذ يصبرهم ويبشرهم بقتل هاشم وعمار بن ياسر وابن بديل ، ويقول : « يا أهل الشام ما جعلكم أحق بالجزع على قتلاكم من أهل العراق ، فو الله ما ذو الكلاع فيكم بأعظم من عمار بن ياسر فيهم ، وما حوشب فيكم بأعظم من هاشم فيهم ، وما عبيدالله بن عمر فيكم بأعظم من ابن بديل فيهم ، وما الرجال إلا أشباه ، وما التمحيص إلا من عند الله ، فابشروا ، فان الله قد قتل من القوم ثلاثة قتل ابن بديل وهو فاعل الأفاعيل ، وقتل عمار ابن ياسر وكان فتاهم ، وقتل هاشم بن عتبة وهو جرثومتهم » الى غير ذلك مما كان يتباشر به أهل الشام فى مقتل هاشم .

وبالاضافة الى ما كان عليه هاشم من الشجاعة والبطولة كان قائداً خطيراً وعسكرياً محنكاً عجمته الحروب وعجمها حتى علم جميع فنونها واكسبته من الخبرة والمهارة ماجعلته يقرأ مستقبلها كأنه أمامه في كتاب مفتوح ، يقول نصر بن مزاحم : مرّ رجل من أصحاب الامام على هاشم وهو صريع بين القتلى فأخذ هاشم بثوبه وقال له مؤكداً : اقرأ أمير المؤمنين السلام ، وقل له يقول هاشم : انشدك بالله إلا أصبحت وقد ربطت مقاود خيلك بأرجل القتلى ، فان الدبرة تصبح غداً لمن غلب على القتلى ، فاخبر الرجل امير المؤمنين بذلك ، فقام الامام من فوره تحت جنح الظلام وسار بجيشه حتى جعل القتلى خلف ظهره ، فلما أصبح الصباح تحقق قول هاشم وكان الفوز للامام فى ذلك اليوم على أهل الشام ، وهذه الرواية مع دلالتها على حنكة هاشم وخبرته العسكرية تدلنا أيضاً على شدّة ولائه للامام وتفانيه فى حبه ومودته ، بحيث لم تشغله روحه وقد بلغت الحلقوم فى تلك اللحظة الأخيرة من حياته التي تكون عادة أربك لحظة في حياة الانسان وأشدها محنة ، وأشغلها له عن كل من عداه وجميع ما حوله ، فى هذه اللحظة نفسها لم يفكر هاشم بغير الامام ولم تشغله روحه عن مصلحته ونصحه والجهاد معه بالرأي بعد أن عجز ساعده عن الجهاد معه بالسلاح ، وكلّ يمينه عن الذب عنه بسيفه ، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يعرف من صاحبه هذا الاخلاص قديماً ويحرز منه كل هذا التفاني والتضحية في سبيله كما أخبر عبدالله ابن عباس بذلك عند ما بلغه خبر مقتل محمد بن أبي بكر رضوان الله عليه

ودخول عمرو بن العاص لمصر ، قال لابن عباس قال فيما قال : « رحم الله محمداً ، كان غلاماً حدثاً ، ولقد كنت أردت أن اولي المرقال هاشم بن عتبة مصر ، فانه والله لو وليها لما خلى لابن العاص وأعوانه العرصة ، ولا قتل إلا وسيفه في يده » ومن هذا القول نستطيع أن نعرف أيضاً — مع تقدير الامام لبطولة قائده المرقال وايمانه في نصحه واخلاصه — أشياء كثيرة وأشياء ، فقد فتح لنا الامام بقوله هذا الف باب وباب نشرف منه على غزارة علم صاحبنا هاشم بالفقه واحاطته بجميع ابوابه وفروعه ومسائله ، واحاطته أيضاً بعلم الرواية والتفسير ، ثم على اجتهاده المطلق وبالجملة على كل ما كان يلزم الوالي حينذاك عادة لكثرة الابتلاء وبعد المسافة بينه وبين الخليفة وقلة الواسطة وتأخيرها ، ثم نشرف منه على حنكته السياسية ، وعلى ايمانه القوي وأمانته ، وبالأخير على كل ما كان يجب أن يتصف به نائب الخليفة الشرعي ، وكل ما كان يراه الامام شرطاً ضرورياً في الأمير ؟

مكتبة
جمعية الرابطة العلمية الأدبية
في النجف الاشرف

مطبعة الزهراء في النجف

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

00295353

297.092:H155hA

الحكيم

هاشم المرقال .

297.092
H155hA

أقطاب الشيعة

سلسلة كتب أدبية ، ثقافية ، تاريخية ، تبحث عن صورة عشرة من أقطاب الشيعة ، وعظماء المسلمين ، الغاية منها بث الفضيلة والكمال ، والبعث الروحي ، وايقاظ العزائم ، وشحذ الهمم في النفوس وتذكير المسلمين بماضيهم المجيد ، صدر منها بقلم المؤلف ثلاث حلقات

١ — مالك الأشتر

٢ — قيس بن سعد بن عبادة

٣ — هاشم المرقال

وسيصدر قريباً

٤ — محمد بن أبي بكر

٥ — حجر بن عدي الكندي

٦ — عمرو بن الحمق الخزاعي

يطلب هذا الكتاب بالمفرد والجملة من مكتبة الفضيلة في النجف الأشرف لصاحبها السيد جابر أبو الريحة ومن مكتبة الرافدين لعبدالغني محمد كاظم الكتبي ومن سائر المكتبات في العراق .